الموت الحرام

الموت الحرام (رواية)

جهاد محمد (كاتب كويتي)

الطبعة العربية الأولى 2022.

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، مجمع المفلح التجاري (87)، ط1 . هاتف: 65620722.797162720 (962+)
alaan.publish@gmail.com،
alaanpublishers.com

لوحة الغلاف: تشكيل بصري يستند إلى صورة بعدسة الفوتوغرافي بلال الفضلي.

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN:978-9923-13-477-1

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(783/ 2/ 2022)

813.03

محمد، جهاد

الموت الحرام / جهاد محمد. عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2022

(168) ص

ر. إ: 783/2/2022

الواصفات: الروايات العربية/ / الأدب العربي/ / العصر الحديث/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

جهاد محمد

الموت الحرام

رواية

الإهداء

«رسائل»

من كل المنتحرين إلى الكويت: كل ظني أنك وطن.. قل لي من حوَّلك إلى مشانق؟!

إلى روح ذلك الطفل الذي سُحق في شوارع البلاد وهو يبيع الورد ليعيش: باعك الورد هذه المرة يا جرَّاح واشتراك الله..

«عناق»

لكل الذين انتظروني.. ولم آتِ..

«شكر»

للمؤمنين بحقنا في الحياة والمواطنة، وبالأخص لمنصة الدفاع عن البدون «بلاتفورم»: د. فهد المطيري، ود. ابتهال الخطيب، وثالثتهم أ. لمى العثمان.. تلك التي نحلم بوطن يشبه قلبها..

هوس

وأنا طفلة قالوا في إجابتهم عن سؤالي: النجوم هي بيوت أهل الجنة.

وحتى عندما راحت معلمة العلوم تعدد لنا في الدرس فوائدها، زادت قناعتي أكثر بإجابة الطفولة تلك، سبق أن احتفظت حينها بأكثرها إشعاعًا قبل أن أذهب إلى شقيقاتي لأسألهنَّ عن اختياراتهن.

لم يأتِ أحد على ذكر شيء عن «التوازن الكوني».

منذ عمرين، حطَّ بنا الفقر في منطقة الفقراء، نصف منزل في المنطقة المنسية بهذا الوطن.

هذا هو المنزل السابع الذي نسكنه.

غرس بي عدم الاستقرار أن لا أكون وفية للأماكن، علمني أيضا أعيش غيري إذا ما شحت الوجوه الجديدة في حياتي، بت أتلهف لاستنشاق روائح من سكنوا البيوت قبلنا، بل أكثر من هذا، كنت أميز عدد أطفالهم من الخطوط التي رسموها على الجدران، عدد الفتيات من بقايا مساحيق التجميل.

أعرف أيضا مقدار فرحهم من السقوف، تتصادم ضحكاتهم هناك قبل أن تستقر في الأعلى، أصعد إليها، أجمعها بيدي لأسمعها، كانت جميعها أقل من أن تجعلني أشاركهم السعادة، كرمهم أميزه من تركهم للإضاءة

بعد رحيلهم، البخلاء فقط هم من لا يشعرون بظلمتنا ونحن نحل في بيوتهم.

مارست نقيض أفعالهم في كل المنازل التي رحلنا عنها، كنت أنشر غموضنا في الأرجاء إذا ما صعد أحدهم الهواء نحو السقف ليكتشفنا، على الجدران أرسم سريرا تتجمع حوله أربع فتيات عَلّه يشد انتباه آخرين أكبر سنًّا من الأطفال، وإن كنت الأخيرة في الخروج أقذف حجرا على الأضواء: كرماء لكن نريد أن ننتقم، أكتب أيضا على الأرض: سيخونكِ ولو تأنقتِ! ستقرأ إحداهن ذلك حتما عندما يسقط شيء من مواد تجميلها وهي تتزين له.

وأيضا لم يأت أحد في هذا المجتمع المتبجح على ذكر شيء عن «التوازن المجتمعي»!

أخلق صديقة لي في كل تلك المنازل، لكن بترحالنا أصبحت أيضا غير وفية للأصدقاء.

ترتكهن خلفي دون أن ألوّح لهن بمغادراتي تلك، أو أنني كنت أخجل من فعل هذا بعد أن ضحكت علي شقيقاتي في حوض سيارة أبي عندما فعلت ذلك للمرة الأولى والأخيرة.

كان ذلك الحوض سلوتنا الوحيدة فوق أرض الوطن، عندما تصفع الريح وجوهنا، يتلاعب الهواء بشعرنا رغم أن أمي تشده بقسوة في كل مرة كانت تسرّحه لنا.

أمي، تلك التي كانت تحتفظ بأخي داخل سقف السيارة خشية أن يتعرض لأذى الريح، دون أن تعلم أننا نعيش في مهبها داخل الأسقف وخارجها.

نسيت ما بدأت به!

لربما كنت أريد الحديث عن لقائي الأول ذاك بمنطقة الصليبية، تلك التي سكنها أقراننا الأكثر يسرا، دون أن أعلم أننا بذلك ارتقينا من الجحيم إلى جهنم!

هنا، أصبحنا متساوين بالاسم مع أغلب جيراننا..

لكننا وإياهم بقينا في درك الكويت، دون أن يشعر الآخرون بنا، كأنْ لا شراكة لنا معهم في هذا الوطن.

لكن ماذا عن التوازن الكوني؟!

وماذا عن نجمتي تلك؟! قد مر عمر من الأسى دون أن أحظى بفرصة لقائها، غريب حقا أن أكون في كل هذه العتمة ولا أجد نافذة لليل في حياتي؟!

بل الأغرب أنهم يهمون بنقلي منفردة لنزل جديد، أن لا يكون بالسيارة التي تقلني حوض، وأبي ليس خلف مقودها، هل سرحت أمي شعري للخلف قبل أن أركب؟ أتحسس رأسي فأجد حجابا يغطيه، يبدو أنني كبرت بالقدر الذي مُنع به من أن يتنفس هواء الطريق، لكن أين شقيقاتي؟ لمَ هذه الشباك أمامي؟ ولماذا الناس ينظرون إلي هكذا كلما مررنا بهم؟

«أراه هناك، محاطًا بمن يرتدون لون قلبه، ينسحب منهم إليّ

يأتيني وهو الّذي لم يغادرني مطلقـاً...

يترك سؤالاً مواربـاً نحو لقاء آخر:

- هذه المرّة الأولى التي أراكِ بها في الحديقة.

وما علم أنني وردته التي تنتظر سقياه.

أقول له:

- يا ترى، كم وردة دفنوها هنا لتصبح هذي الصّحراء مزهرة؟

يدير وجهه عنّي، يمعـن في الأرض تحتـه، يرفـع رأسـه نحـو السّـماء، يمعن فيها كرّة أخرى قبل أن يسألني كعادة رحيله:

- أتقصدين هذه الحديقة؟ أم الوطن؟

٬٬٬

٬٬

٬

فيا من دنا،

بانتمائي لعشقك، جرّب أن تكون لي الوطن.

كهذا الّذي يُغرّبنا، لـم يعد مسقط رؤوسـنا، صـار مـدفنا لأسـرتي. قبلهـا استثمر بنا الفقر تسـوّلا، فـنحن الأحيـاء الـذين نـدفن شـيئا مـن غـدنا كلّمـا سلكنا طريق المقبرة.

عندما مات أبي، لم أكن أبلغ وقتها من الذاكرة حدًّا أستطيع به الاحتفاظ بشيء أكثر من ذكريات اللعب مع فتيات أقربائنا اللاتي قدمن مع أمهاتهن لعزائه.

نضحك على ضرب العجائز صدورهن حزنًا بموته، قبل أن نتسابق في المساء على جمع علب المشروبات الغازيّة عند تقديم الطّعام لهنّ، خبّأت كلّ العلب في «نضيدة» أمّي، تلك الخزانة الخشبية الّتي توليها اهتماما وعناية في ترتيب السجاد والأغطية، متراصة فوق بعضها البعض عليها لتبدو أجمل من حياتنا المرتبكة.

بعدها بفترة باعت أمي تلك «النضيدة».. سألتها: «لماذا؟» علّلت ذلك بـ«العوز».

جلبت بضع مثلجات بشيء من الأموال لتهدئة بكائي، كانت تلك المرّة الثّانية الّتي عرفتُ بها معنى أن يموت أبي، عندما خسرتُ برحيله مخبئي السرّي.

قبلها اشترى أحد أقربائنا أغنام والدي، لم يكن في منزلنا آنذاك متسع للإبقاء على من شاركونا أسماءنا.

اعتاد والدي أن يطلق أسماءنا على مواليدها الجدد، وحين يحين موعد بيع أيٍّ منها فإنه يستبدل الاسم بمولود آخر من أغنامه.

كان أبي ينتظر بلهفة أن يكبر شقيقي قليلا ليساعده في تربيتها، يأخذنا مع أمّي بين الحين والآخر لتنظيف حظيرتها، نعاودها بعد كلّ غياب لنراها تكبر سريعًا.

كم «بتلة» استبدلتها في كلّ تلك الزيارات!

لكنّ الأخيرة التي جلبها والدي قبل موته بأيام قليلة هربا من برد الشتاء هي ما بقيت عالقة في ذهني إلى الآن.

اتسعت قوائم البيع بعد ذلك، تخففنا من بعض الأثاث كلّما انتقلنا لمنزل أكثر ضيقًا مما قبله، صار الطّعام أهمّ من دفع رسوم «الشريحة» المدرسية، بقيت «بطاقاتنا الأمنية» لفترة -بعد موت والدي- من دون تجديد، وعندما ذهبت أمي إليهم وجدتهم قد أسندوا إلينا جنسية بلد آخر، فعلوها بعد أن تيتّمنا، أتى ذلك بعد أن شحت الأقدام عند عتبة باب منزلنا.

ضاقت بأمّنا السّبل حتّى صرنا نرافقها إلى المقبرة كلّ نهاية أسبوع، تجلس خارج أسوارها تبيع الماء المعطر، ونجلس في حمى الأسوار أنا وشقيقاتي، وكلّما اقترب شخص من قبر لزيارته نهرول قبله لغسله طمعا بورقة نقدية.

يرقد أبي في المقبرة المقابلة لنا، تتركنا أمي في الظهيرة بجانب الماء المعطّر، تعبر الشارع لزيارته، وفي المرّة الوحيدة التي عبرتُ معها الشّارع كنت أتشبث بعباءتها خوفا من تلك القبور!

لم يختلف الموتى في هذه المقبرة عن نظرائهم في المقبرة المقابلة، أمشي بين القبور ملتصقة بأمي، أقرب إليها من ظلها، أتحذر كثيرًا لئلا أصدر صوتا يُفيق والدي من منامه، وكأنني ما زلت في الأمس، في تنبيهات أمي حين ترى والدي متوسدا تعبه وممددا بيننا بعد يوم ثقيل.

شكت أمي له حالنا، فهمت لاحقا أنها كانت تفعل ذلك طوال تلك الزيارات، وجدت قنينة فارغة، ملأتها بالماء وهممت بسقي قبره بحذر، عندما رأتني أمي أفعل ذلك أخرجت ورقة «ربع دينار» ودسّتها في يدي.

كانت تلك المرّة الأولى والأخيرة التي أجلس بها إلى مقدمة قبر والدي، وددت لو أنبشه من موته لأخبره بفرحتي بما أعطتني أمي قبل قليل. في عودتنا إلى قطع ذلك الشارع طلبت مني ألا أخبر شقيقاتي بما أعطتني، سقطت دموعي عندما تذكرت أن لا «نضيدة» لدينا كي أخبئ «ربعَ دينارٍ» بها.

أريقت طفولتي بين ممرات القبور، لعبت «الغميضة» مع شقيقتي «سعدة» خلف شواهدها صباحا، لم نكتفِ بغسل القبور وحسب، بل حفظنا بعض الآيات القرآنية ورتلناها على أرواحهم.

كان الموتى قوتنا ولهونا..

اعتدنا أن يمسح الناس فوق رؤوسنا، دون أن يكون لهذا الوطن يد تستدل علينا.

كبرنا هنا في «الصليبية» وتشققنا كشوارعها، بعد أن قطع أخي «زياد» وريد يده منتحرا في إحدى الساحات الترابية، لم يشأ المسؤولون أن يضاف رقم جديد في عدد «البدون» المنتحرين، ألصقوا به تهمة «الوفاة بجرعة زائدة من المخدرات»، شرّحوا جثته بلا سبب غير أنهم يريدون إخفاء جروح يده.

نـزف بمحـض إرادتـه مـرة، ونزفنـا بفعـل مشـارط تشـريحهم مـرات ومرات.

عنوَنـت إحـدى الصـحف في صـفحتها الأخيـرة خـبرًا: «بـدون يفـارق الحياة بجرعة زائدة»، وعندما هربتُ من خبر موت أخي بقلب الجريدة إلى صفحتها الأولى وجدتُ عنوانا آخر يعنيني أيضـا: «قطـار حـل قضـية البدون ينطلق».

مات «زياد» وهو ينتظر صعود القطار في الصفحة الأخيرة من الجريدة نفسها!

بينهما عديد الصفحات التي تتحدث عن أيادي الكويت البيضاء..

قبلها كان قد نزف طفولته ومراهقته دون أن يمرَّ قطارهم بمحطته.

دفنوه في عيد استقلال الوطن وتحريره، أطال الشيخ الـذي صـلى علـى جثمانه الدعاء له، سمعته وهو يقول للمصلين إن هذا الشـاب بحاجـة إلـى دعـائهم، وكـأن المتراصـين في صـلاتهم أمـام جثمانـه الوحيـد –الوحيـد تماما– قد تطهروا من ذنوبهم شتى.

وما علموا جميعهم أن هذا الوطن أحوج من أخي إلى دعائهم..

انعتـق أخيـرا مـن تنمّـر النـاس عليـه، ابـن التـي تفـترش وبناتهـا أرصـفة المقابر، أو أنه تحرر من «قرينة الجنسية» التي ألصـقوها ببطاقتـه الأمنيـة، مـن عزلـه عـن زمـلاء صـفه بالمدرسـة لعـدم دفعـه رسـوم «الشـريحة الدراسية»، من الازدحام الذي كان سيواجهه وهو يهم بصـعود قطـار حـل قضية «البدون».

لم نخبر أمي بأسباب موته، هي لم تسألنا أصلا، لكنها ظلت لفترة طويلة تستفيق بنفس توقيت تلقيها خبر وفاته، تستفيق مرعوبة وهي تصرخ: «يمّه ولدي».

لم نعد «بنات المقابر» بعد أخي..

بهذه أحفظ للوطن جميل انتحاره!

لم نخسر «زياد» فقط، خسرنا شيئا من أمي أيضا عندما تعطلت الكلية المتبقية في داخلها عن أداء وظيفتها، امتلأ جسدها بالسموم والحزن، أُنقذت بأعجوبة من الموت، بعد أن كانت تقوم بغسل الكلية ثلاث مرات في الأسبوع.

لم تكن تبكي في المشفى، رغم هول الألم الذي تشعر به، بدا لي أنها نذرت كل دموعها لأخي فقط، تقايض ألمها بنحيبه، كبرتُ على صوت عويلها بفقده، لم يطربني غير ذلك الصوت، أذكر أنني لفترة ما كنت أرقص عليه كلما دخلت الغرفة المجاورة لها!

ما عدت أختنق من رائحة التعقيم في الممرات النظيفة للمشفى، حفظت الجمل المعلبة من التوسلات لمدير المشفى، اخترعت كلمات استعطاف جديدة، زينتها ببعض الدموع كلما استبدلوا مدير المشفى بآخر جديد، بات لي أيضا علاقة تسول مع الموظفين الآخرين، يمرر البعض قبولهم على أوراق علاج أمي دون أن أنطق ببنت شفة، لم يشاؤوا إفساد قهوتهم الصباحية بدموعي، يسألني آخرون عن اسمي، أقول لهم أسماء كل الأغنام التي أطلقها والدي تيمنا بي.. إلا اسمي!

كان جسد أمي ينتفخ تباعا، تنقص قدرتها على السير خطوة إثر أخرى، خطوة بخطوة ويوما بآخر.. نفد رصيدها من السير على الأقدام سريعا، أصبحت مُقعدة مع مرور الوقت.

الوطن الذي لم يعترف بها سابقا.. لم يتغير عند إعاقتها.

«لكنه لم يفارقني، ينجلي ليلهم

فيشرق بي مجددا:

- أسعدني أمسُك الهادئ.

يبتسم بها، يتكئ قلبي على شفتيه

- توسدوا ذراعي نائمين، لم أشأ أن أقلقهم.

يطبق شفتيه حول قلبي، لم يغضب لكنني فقدت ابتسامته.. وقلبي.

لم يرحل أيضا، أخبرتني عيناه بعودته:

- هل ستحظين بليلة أخرى مثلها؟

‘‘‘

‘‘

‘

فيا من دنا..

فتدلى قلبي بحديثه وصمته، ونحن الذين بدأت رحلة صمتنا منذ شهقة أمي الأولى بأخي، زادتنا وفاته فقرا، يكفّر من يعصون الله عن ذنوبهم بأكياس الطعام التي يتركونها لنا، وكأن جحيمنا أصبح طريق جنتهم، كذلك الطريق الذي قطعته مرارا مع أمي إلى المشفى، عندما يعكس سائق الأجرة اتجاه سيره ليحاذي المقبرتين، تلصق وجهها بالنافذة كلما مررنا من هناك، تحدّث بصمتها من سكنوا اللحود، جفت كليَتاها من الماء، لكن نهر دموعها لم يتوقف.

«عوزنا» واليتم كان إغراء كل الذين طرقوا الباب قاصدين الزواج، تصر أمي على عرضنا كلنا في بازار خطوبتهم، غامرت كثيرا بقرارها هذا، كأنها لم ترغب أن توفر أيًّا منا لمرضها، أو أنها أرادت أن تقدم على الخطوة الأخيرة قبل موتها، عرفتُ ذلك عندما دفعتُ كرسيها المتحرك ذات مرة إلى فناء منزلنا الصغير، حدثت الله سرا ورفعت يديها علانية أمامي، تمتمت له فتزوجت شقيقتي الكبرى «كريمة».

بقينا ثلاثًا أخريات، ليس لأننا كنا نملك حق الرفض، بل لأننا لم نحظَ بالقبول عند ذائقة مبتاعينا.

عادت إلى فعل ذلك لاحقا، أوشكت ليلة «حمدة» شقيقتي الوسطى على الاقتراب.

لم أفرح لهن كثيرا، سعدت أكثر بفكرة بقاء صلاحية حياة في تاريخنا، مذ أن سقطنا من رحم أمي إلى هذه البئر وأنا أتصفحني بحثا عن الأشياء التي فسدت بي، كم حلما اشتهيت أن أحلمه! كم من موتى اشتهيت أن أسألهم عن الحياة في الجانب الآخر منها! أن أسأل أبي عن صواب فكرة ولادتنا، أيشفع زواجهن لوالدينا عن ذنب الإنجاب؟ لا أعرف كم ضاع من العمر في شتات هذه الأسئلة، ولا أعرف من المذنب حين تكبر الأسئلة فينا وتصغر الأحلام!

لم تعد أمي، كانت موتنا الأول الذي أتهيأ له، أنعزل بها أكثر من ذي قبل، آخذ أدوار شقيقاتي كلهن، باستفاقتي معها عندما تشهق بأخي كل

مساء بنفس توقيت موته، أضبط توقيت أدويتها مع تلك الشهقة، وحتى عندما حان موعد زفاف «حمدة» كنت أفترش الأرض بجانب سريرها.

رفض المشفى دخولها رغم سوء حالتها، قالوا إن قرار عدم علاج أصحاب البطاقات المنتهية ما زال ساريا، لم تعد تقوى على الذهاب ثلاثة أيام في الأسبوع إلى الغسيل، هرّب أحد العاملين بالمشفى قناني أدوية عديدة كحلّ مؤقت يخفف أثر عدم ذهابها للغسيل.

كأننا بهذا نسرق لها حياة متشظية..

تملكني خوف خسارتين: أمي وخساراتها، أن أنسى أخي مع شهقتها الأخيرة، أن نفقد هذا المنزل الذي تسولته لنا، ونحن الذين كنا ضيوف المنازل التي سكنّاها، وحين غادرناها تركنا ذكريات الراحلين عنا عارية هناك.

لكنّها ماتت قبل أن آخذ وقتا كافيا للتفكير بموتها..

ماتت أمي في الليلة السادسة من زواج «حمدة».

استفقت قبل شهقتها بدقائق، لم أحرك ساكنا من فراشي تحتها، انتظرتها ساعة بعد ذلك لتقول ما اعتادت قوله، لم تفعل. مات أخي أيضا في صمتها بتلك الليلة، نهضتُ أخيرا، وضعتُ يدي على فمي، أطلقت عويلا يشبه عويلها الذي نضجتُ معه، قلبت علبة الدواء رأسا على عقب، تناثرت الحبوب أرضا.. كانت ترقص على نحيبي كما كنت أفعل على صوتها ذاك.

ماتت من كنت مؤخرا أمّها..

تقلّبها شقيقتي المتبقية معي «سعدة».. وعندما لم تجد بها حياة لطمت وجهها كما تفعل عجائز الجنائز.

لكني لم أضحك هذه المرة على اللطم، تناولت قلما، رسمت على الجدار أخي ينزف، بجانب صاعقة فوق رأس أبي، التفت لها لأسألها:

- أأرسمها مقعدة أم يمكنها السير الآن؟

لم تجبني، صرخت «سعدة» باكية.

تركتها، ذهبت إلى فنائنا الصغير، حيث مكان أمي المفضل للدعاء، أنظر إلى السماء، أغرق بها، لا شيء أفعله أكثر من ذلك.. لا شيء.

في حضرة الله أصمت، كآلة موسيقية صماء سقط لحنها سهوا من أوتار عازفيها، كأنني لم أتُه قبل ذلك في دوامة الأسئلة والرغبات.

سلكنا بها ذات الطريق مجددا، من أغلق أبواب المشفى بوجهها ها هو يفتح أبواب «المغيسل» ترحيبا بها، حممتُها للمرة الأخيرة، سكبت المياه على جسدها المتورم ببرده، قلبوها على جانبيها، أسمع أصداء بكاء شقيقاتي تتردد حولي، مواويل الحزن تعود إلى مسمعي مجددا عندما بكت معنا عاملات المقبرة.. تذكرنها رغم انتفاخ جسدها.

عندما كفنوها لم تعد أمي، أصبحت جثة وذكرى.

واراها الثرى، فهل حقا ماتت؟

لم يسمحوا لنا بالبكاء فوق ترابها، قال أحدهم إن دموعنا تعذبها! كأنه لم يكن قبل ذلك شاهدا على عذابات افتراشها أرصفة المقبرة، أو أنه سمع صوت بكائنا فقط ولم يسمع طنين مضخات غسيل كليتها؟

أحقا نعذب أمي ببكائنا؟ أحقا لم ترتح بعد؟

ما زلنا عذابها، شعور اليتم ودموعنا تلسع كلينا على جانبي هذه الحياة.

ماتت أمي عندما لم يسمحوا لنا بالبكاء فوق قبرها، وتيتمنا عندما لم يصافحنا أحد في عزائنا بها.

موحشة كانت ليلة الكويت من دونها، يطبق علينا منزلنا الخالي منها، كأنه والوطن يتسابقان في الضيق والتضييق علينا. اجتمعنا أربعتنا فوق سريرها، كانت رائحتها هي كل الميراث، تنازعناه ولم نقسمه.

لم أفهم ملازمتهن لي في تلك الليالي، لم يتركن لي فرصة إكمال رسمها على الجدران، عندما سألتهن تباعا نفس السؤال: أأرسمها مقعدة أم يمكنها السير الآن؟ لم تُجب أي منهن.

حاولتُ جاهدة ألا يشعرن بفقدانها، استفقت بنفس توقيت شهقتها، صرخت أيضا: «يمّه ولدي»، تناولت حبوب الأدوية التي بقيت منها، وعندما نفدت كلها بداخلي أخبرتهن بضرورة جلب المزيد منها.

لكنهن لم يفعلن ذلك، أسرعن بي إلى المشفى، أدخلوا شيئا ما في فمي.. استرجعتها كلها، ارتديت عباءتها أيضا، انتظرت أن يذهبن بي إلى موعد الغسيل، لكنهن لم يفعلن ذلك، وفي نهاية الأسبوع نهرتهن عندما تأخر الوقت على موعد قطعنا تلك الشوارع المتشققة في الطريق إلى المقبرة!

فعلت كل ما بوسعي لئلا يشعرن بفقد أمي، وحاولن أن يوقفنني عن الاستمرار في ذلك، تناوبت «كريمة» و«حمدة» على البقاء في المنزل مع «سعدة»، أحسست في داخلي بسعادة فعلهن ذلك، كأنهن شعرن بذنب زواجهن ويردن الآن أن يكن بارّات بأمي ببقائهن إلى جانبي.

وددت لو أنني أستطيع تسلق عتبات الهواء كلما أشعلن بخورا فوق رأسي، امتلأ منزلنا بالدخان وصوت مرتلي القرآن، قرأت سيدة ذات مرة نفس تلك الآيات وهي تمسك برأسي، كنت أصرخ بها من شدة قبضتها علي، لم تبالِ أي منهن بوجعي، صرخت في وجهها، شتمتها، دفعتها بيدي قبل أن ألوذ بغرفة أمي.

«يصرفهم من حولي..

أطلب منه ألا ينظر ناحيتي للحظة..

يفعل ذلك.. ألعق يدي؛ أحاول بمائها أن أرتب مقدمة شعري

أعض على شفتي بقوة بغية احمرارهما

أقول له:

- بإمكانك النظر الآن.

يحدق بي، أعرف نظرة الإعجاب تلك جيدا:

«أحقا فعلتِها مجددا؟».. يسألني.

«اشتقت لهم». أقولها، ويمضي نهار آخر.

يحدق صمتا بي:

- هل ستكررينها؟

يسألني.. ويَمضي ليلٌ آخر أفكر به.

‘‘‘

‘‘

‘

فيا من دنا..

لوصال، كن لي كلهم.

وهن اللاتي لم يتركن أمي تعيش بي، لم تدفعني أي منهن بعد جلوسي ذات نهار بمقعدها المتحرك، وعندما طلبت منهن مساعدتي سمعتهن يقلن عني إنني «مجنونة»، لم أبالِ بقولهن، حركته بيديّ، كنت أمي وابنتي

أيضا، ذهبت به إلى فناء منزلنا، أتأبط تلك الجريدة، يعود تاريخها إلى ثماني سنوات فائتة، تيبست أوراقها، لكني لست «مجنونة» بمعرفتي أننا للتو دخلنا عام 2023.

أفردها بيدي، ما زال قطار حل قضية «البدون» واقفا في صفحتها الأولى، أقلبها إلى الأخيرة، ما زال أخي ميّتا بجرعة زائدة من المخدرات منذ عام 2015، أفهم الآن لماذا لم تسألنا أمي عن سبب موته طالما أنها احتفظت بنسخة من هذه الجريدة. أفتح صفحاتها بعناية فائقة كي لاتتكسر بين يدي: «سعر برميل النفط يقفز فوق حاجز الـ80 دولارًا»، أقرأ هذا العنوان قبل أن أصرخ بهن: كم صار سعر البرميل اليوم، لم يجبنني أيضا، «البلدية تستنفر لتنظيف شوارع الاحتفال بالعيد الوطني»، أقرأ هذا الخبر أيضا، أقلبها إلى صفحة أخرى، صور حفل زفاف أحدهم تحتل مساحة واسعة، وفي الزاوية العلوية صورة لرجل يحتضن مولوده: «وقد عاد رجل الأعمال «جابر» إلى البلاد مؤخرا بعد أن رزقه الله بمولوده البكر في العاصمة اللبنانية بيروت»، أسأل نفسي هذه المرة: يا ترى ماذا أسماه؟

أغلق الجريدة بعناية فائقة، أعود إلى داخل الغرفة، لحظات قليلة قبل أن تطلب مني شقيقاتي أن أخرج، لم أكن حينها قد تركت عباءة أمي تغادر جسدي، وجدتهن ارتدين عباءاتهن أيضا، أحاول أن أستفسر عن السبب، يسبقني إلى فعل ذلك طرق باب منزلنا، يدخل زوج شقيقتي «كريمة» برفقة رجل دين، لم ينظر إليهن بل صب تركيزه نحوي، قمتُ عن المقعد المتحرك، طلب منهن إبقائي عليه:

- لا تغادره، فهذا مكان مناسب.

يتشبثن بي جميعا، لم أقاوم هذه المرة.

يسألهن عن مكان المطبخ، فيذهب له برفقة زوج شقيقتي، دقائق قليلة قبل أن يعودا ويد «الشيخ» خلف ظهره:

- اكشفوا عن رأسها.

سقط غطاء رأس أمي الذي كنت أرتديه أرضا، كشفوا له عن شعري، قبض عليّ كما فعلت تلك السيدة من قبل، قرب يده المختبئة مني، لهيب نار حمراء تنفث من قطعة الحديد تلك التي بيده، فلّى بيده الأخرى شعري، اختار مكان لسعها، ألصقها برأسي، احترقت ذاكرتي كلها بفعلته تلك، تنافضت كطير مذبوح، أمسك زوج شقيقتي قدميّ أيضا، فلّى شيخهم ثانية رأسي، توسلت إليهم.. توسلت إليه ألا يكررها لكنهم لم يبالوا، اختار مكانا آخر هذه المرة، خلف أذني اليسرى، قال كلماته التي لم أفهم منها سوى: «اخرج، اخرج».

كوى أذني أيضا..

لم يخرج أحد سواه وزوج شقيقتي بعد فعلته تلك، ذويت أرضا من ذلك المقعد المتحرك، وقبل أن يغادرنا كنت أجمع ما بفمي وأبصق نحوه.

تلوّيت بجانبهن، عدن إلى إشعال أعواد البخور في المنزل، كان الهواء قد امتلأ دخانا من حرائق رأسي، رفعن صوت ترتيل القرآن عندما تلاشى تخدير جسدي وتعالى صوت الألم الذي أطلقه.

بعدها، قضيت الليالي في سرير أمي، أبكي لها مما صنعن بي، قاطعت محادثتهن والطعام الذي جلبنه، لم أقو على النهوض، لا أذكر في طفولتي أني تبولت في فراشي لكني أفعلها الآن، وعندما وصلت تلك الرائحة الكريهة إليهن، رفضت أن أغادر معهن إلى دورة المياه، هددنني بأن يأتين بذلك «الشيخ» مجددا، قمت مذعورة أتبعهن.

توصلن أخيرا لدائي ودوائي..

تناولت الطعام على وقع ذلك التهديد، فعلتها ثانية على فراشي، وعندما مللن تكرار غسيل الأغطية، هددنني مجددا بـ«جهنم» رجل الدين.

لم أنم خوفا من تهديدهن وناره.

وهم

عصفورة بين يديه.. لكن دونما أجنحة تحلق بها
يواسيني في كل مرة أسقط أسفله:
- ستعتادين على كل هذا؟
تهطل عيني دموعا كأنها لوم في تراتيل مؤمن..
استفيق منه.. ويا ليته كان حلما
وحينما حان أوان الندم كنت أسأله من غير استفهام:
- يا كل البدايات كن النهاية
‘‘‘
‘‘
‘
فيا من دنا..

كتوأم ضل متشبثا بحبل شريكه، وأنا التي لا أشبه سوى روحي، وما هذا الجسد الذي أنا به سوى سجن، بودي لو أحلق بعيدةً عنها، حيث لا أرض، كأن أفوق غيمة وإن اختل توازني وسقطت، أرفرف بالأجنحة خلف ظهري، حيث اللاسقوط أكون، عندها يصبح كل هذا الفضاء وطنا، أما الذي بالأسفل فهو الجحيم.

لا أعلم لماذا كانت أمي جاذبيتنا، مذ أن رحلت رحنا نتنافر بعضنا من البعض، لم يكن الزواج بوابة حياة جديدة، كل ما في الامر أنه هروب للوراء من الإعصار الذي يلتف فوق رؤوسنا.

تجلس شقيقاتي حولي، أصاب بالارتياب من هذا، أعرف أن طريقتهن هذه اعتذار مسبق عن الذنب المرتقب لي، تقول كريمة:

- يبدو أننا أخطأنا بجلب رجل الدين، إن ما فعله بك أنبنا كثيرا.

تتلقف حمدة الحديث منها:

- أصبح لدينا إيمان كبير أن الذي تعانين منه ليس مرضا عضويا يشفى بالطرق البدائية كالكي والبخور، أنتِ بحاجة إلى علاج نفسي يعيدك إلينا.

تعود كريمة للحديث:

- لقد تواصلنا مع طبيب مختص، وبعد أن شرحنا له حالتك قال إن الذي بك هو صدمة نفسية قد تصيب أي شخص بالعالم، وقد طمأننا كثيرا بأن معظم الحالات التي تشبه ما تعانينه عادت كما كانت بالسابق بعد فترة بسيطة من جلسات العلاج.

معهم أنا لست بموقع يسمح لي بالاختيار بين القبول والرفض، قد لا أكون الشخص الوحيد في هذا المجتمع الذي يحرم من أبسط قاعدة في هذه الدنيا: نعم أو لا، وحتى وإن تذمرنا من جراء هذا الفعل فإننا نعود بعد حين لنمارسه مع أبنائنا! وكأننا جبلنا على توارث هذا الاستبداد

الأسري دون أي مساحة نعبر بها إلى خياراتنا ونتحمل وزرها بصدر رحب، عوضا عن فعل الأمر ذاته من جراء اختيارات الوصيين.

لهذا، ولكل ذاك الذي أنا به، وددت أن لا أكون بهذا الجسد، أن أكون ابنة روحي وسيدتها.

رحن يشرحن بحماس كبير قبول ذلك الطبيب المعالج الجلوس معي من دون أي كلفة مادية أو مهنية، ورحت أنجرف مع هذا الحماس لإقناع نفسي بالقبول.

كان عليهن أولا أن يهيئن مظهري الخارجي، تقف «سعدة» عند الباب الخارجي نصف المفتوح تحسبا لأي طارئ يحدث لي بالاستحمام، لاحظت هذا التغيير المفاجئ في التعاطي معي، فكل ذلك الوعيد والتذمر والصراخ على ممارساتي السابقة أصبح الآن مقبولا لهن، كإغلاق نصف الباب هذا، ونقاشهن لي بأن عباءة الرأس الخاصة بأمي التي طلبت أن ارتديها في ذهابي للموعد لاتناسبني سنا وشكلا.

تكفل زوج «كريمة» بنقلنا إلى عيادة الطبيب، خصوصا أنه هو الذي كان قد رتب كل هذا الأمر، تجلس «سعدة» إلى جانبي في المقعد الخلفي، وعندما انتصف الطريق تقريبا وجدت نفسي أطلب بفضاضة من «كريمة» أن تدير المذياع إلى محطة الغناء، نكزتني «سعدة» بيدها خجلا من قولي هذا، ورغم ذلك فإن طلبي استجيب له من قبل قائد المركبة.

لا أحفظ الكثير من الاغاني، لكن هذا اللحن الذي استمعت إليه كان مناسبا تماما مع غروب الشمس وجمال الأبنية الشاهقة التي تحيط بنا، تلك التي كانت العيادة تقع في الطابق الحادي عشر لأحدها.

فهمت لاحقا أن «بروتوكول» الأطباء النفسيين في العيادات الخاصة يقضي بأن لا يوجد أي مراجع آخر في نفس الوقت، يسهم هذا الأمر في إعطاء خصوصية أكثر له، كذلك يقضي على الخجل الذي قد يواجهه إذا ما وجد أشخاصا آخرين في نفس المكان.

كانت صالة الاستقبال رائعة، بألوان حيطانها الهادئة واللوحات الزينية المعلقة عليها، ترتيب المقاعد.. الإضاءة.. ركن الاستقبال.. ابتسامة الموظفة التي قابلتنا.. وأشياء أخرى جعلتني أبدو أكثر أريحية بمجرد وجودي هناك.

أجلس وشقيقتي في زاوية شبه مغلقة، نسمع خلالها بوضوح مبادلة زوج «كريمة» التحية مع أحدهم قبل أن يقدم إلينا، ببنطاله الأزرق والقميص الأبيض الذي يرتديه كأن شيئا من ذلك البياض قد ارتقى ليغطي جانبا كبيرا من شعره، يطل علينا بابتسامة أيضا، يطلب مني بعد أن سأل إياهم أن أذهب إلى الغرفة، بينما يجلس هو في المقعد الجانبي للزاوية، تراقفني موظفة الاستقبال لغرفته، تلك التي كانت كقطعة فنية مبهرة، يحيط الزجاج بها من كل واجهتها كأنها بذلك المنظر تدعو البحر البعيد المطلة عليه للجلوس معنا.

بينما كنت أواصل انهباري من ذلك المنظر، كانت الموظفة تعود لتضع أمامي كأس عصير، شربته كله من دون أن أسأل نفسي لماذا أنا لست خائفة من هذا المكان؟!

ذلك الطبيب كان متمكنا من قدرته كثيرا، أو ربما أنا من كنت متمكنة من نفسي أكثر، فبعد أن طرق الباب مستأذنا للدخول احتاج إلى ثوانٍ ليس إلا ليجد مدخلا مناسبا للحديث:

- يبدو أن عصيرنا جيد الطعم

يقولها بابتسامة، قبل أن يتدارك خجلي ويهم للحديث مع الموظفة عبر جهاز المناداة بأن تأتي لنا باثنين آخرين منه.

يترك مكتبه ويبدأ حديثه الجدي هذه المرة واقفا:

- لا أستطيع أن أنفك من ارتباطي الدائم ببناء الشخصية من أسمائها، وحتى لو استطعت في وقت سابق أن أفعل ذلك فأنني سأعود اليوم إلى هذا الأمر بعد أن سمعت اسمك لأول مرة.

أعقد حاجبي تعجبا، فيضيف:

- بتلة، أتعلمين أن أسمك هو الجزء الأكثر رقة بتكوين الورد؟
- ظننت أن المقصود به هي نطفة الأزهار!
- لربما يكون الأمر كذلك في محكية بعض المجتمعات لكنه في صحيح اللغة يشير إلى نضوج جمال الوردة.

يطرق الباب، يأذن الرجل للموظفة بالدخول، يستلهم حديثا آخر من كأسي العصير:

- نحن نرتبط بالاشياء بفعل تجارب منقوصة أو حكايات مروية، خذي من هذا العصير مثالا، قد يكون هو أحد أكثر الأشياء التي سمعنا بها مهدئًا طبيعيًّا للأعصاب، لكنه بالواقع لا يؤثر بشيء على المزاج العام للإنسان إن لم يكن هو بالأساس مقتنعا بأن هذا الشراب سيأتي بمفعوله السريع له، عديد من التجارب الطبية أتت بنجاح مبهر رغم أن العلاج لم يكن إلا أقراصا مغذية ليس إلا.

يكمل حديثه:

- إن أفضل طبيب للإنسان هو نفسه، وأفضل علاج فعال هو مقدرته على التكيف مع الأحداث التي يواجهها. لا أريد أن ألغي دور العلم الحديث خصوصا بالمجال الطبي تمامًا، لكنه لا يمكن أن يحرز أي تقدم ممكن طالما أن الإنسان رافض لفكرة تقبل العلاج.
- ماذا عني أنا؟

أقاطعه، فيجيب:

- مؤكد أنني لن أستطيع إعطاءك أي شرح بفعل شربك لكأس عصير، أو عبر الكلمات التسع التي تحدثتِ بها حتى الآن.

صمتٌ مسترجعة كلماتي التي تفوهت بها مذ أن دخل حتى الآن، وجدتها تماما كما قال!

- أهو جزء من العلاج أن تحسب حديثي؟

يقول مبتسما:

- لا، هو جزء من اختبار قمت به للتو معك، لديك قدرة عقلية وإدراك رائعين بأن تعودي لحساب كلماتك بعد أن قلتُ لك عددها.

يواصل الحديث معي واقفا:

- في هذا الزمن الصعب والسريع والمتغير، مجرد الوقوف للحظات للتأمل أو لإظهار شيء من العواطف يعتبر أمرا شاذا بنظر بقية الناس المحيطين بنا، سيحكمون علينا جراء هذا بأننا مختلفون عنهم، وبمجرد هذا الحكم المتسرع والسطحي فأننا سنكون شاذين عنهم وعرضة لاتهامات عديدة، مع التأكيد على أن جمود التفكير المجتمعي وضع أمامنا العديد من العراقيل في إعادة تهيئة النفس البشرية، ففي دول الحداثة لا تقل أهمية العلاج النفسي عن العضوي، هم ينظرون إلى الإنسان على أنه تلاقٍ بين الأعضاء المادية والمشاعر والأحاسيس، بينما نحن ما زلنا نبني كل أفكارنا عن الشخص المقابل من مظهره الخارجي بحكم أنه سويٌّ أو غير ذلك.

أثني قدميَّ إلى الداخل لأخبئهما داخل العباءة، ينتبه لفعلتي هذه، كأنه ورغم حركته المستمرة وهو يتحدث ينتظر مني أي قول أو فعل ليبني عليه حكمًا.

لا أعلم كم من الأيام مرت قبل أن أعود إلى هذا الهدوء بالدقائق التي مرت لي معه، أو أن بالأمر شيئا من طفولتي، تلك اللحظات التي لم أفهم

بها جيدا معنى الخوف.. لذا لم أكن أخاف، حتى عندما كنت أثني قدميَّ لم أكن خائفة بقدر خجلي لرداءة ما أحتفيه، حقيقة أنني لا أذكر متى كانت المرة الأخيرة التي ابتعت بها حذاء، كانت أمي تجعلنا نستخدم هِبات المحسنين منها، في حين كانت تجمع الملابس التي تأتي معها لتبيعها عن طريق أحدهم في سوق الجمعة، أذكر أنني خبّأت ذات مرة فستانا ذا لون أخضر بين حاجياتي، كنت أحترق شوقا لأرتديه حينما أكون لوحدي، كبر جسدي عليه ولم أحظَ بتلك الفرصة.

يقطع حبل أفكاري، كأنه يعتذر عن إساءتي لفهم حديثه:

- وأنا طفل طلبت من والدي أن يبتناع لي حذاء من إحدى العلامات التجارية العالمية، وعندما كان ثمنه أكبر من قدرة أبي المادية، وعدني أن يشتريه لي في وقت لاحق، توفي والدي ولم ينفذ وعده، وحتى هذا اليوم أتجنب شراء أي شيء من هذه العلامة التجارية لكي لا أسبب خجلا لروحه.
- وهل حقا تشعر الأرواح بنا؟

أقولها مستغربة!

- لا أعتقد هذا، لم يكن ذلك سوى تعبير مجازي مني.
- لكني أشعر بهم موجودين حولي في كل وقت.

يبدو أنه نال مراده أخيرا، ينحني بجسده متكئا على أطراف مكتبه:

- هل يتحدثون معك؟
- حاولت مرارا أن أستنطقهم دون جدوى.

- هل تشاهدينهم؟
- في منامي فقط.
- ماذا قلتِ لهم في آخر مرة؟
- استأذنتهم صباح اليوم بأن آتي مع شقيقاتي إلى هنا.
- ومن ثم؟
- سمحوا لي بذلك.
- كيف عرفتِ؟
- لم يحدث أي شيء خارج على المألوف، نمت البارحة من دون أن أحلم بهم.
- أأفهم من حديثك أنهم يوجهونك لفعل أي أمر؟
- لا، أنا اتجنب ما يغضبهم، حاولت مرارا أن أقول لشقيقاتي عن هذه الأمور من دون أن أجد قبولا لديهن، في تلك المرة عندما أحرقوا رأسي كان والدي أخذني وحدي معه وأنزلهن جميعا من حوض السيارة، كانت أمي قد جلست إلى جانبي تنفخ بمنتصف رأسي.

يأتي نحوي، يمد يده بورقتي منديل، أنتبه للتو أن دموعي بدأت السقوط، يمازحني بعد أن أخذ كأس العصير وناولني إياه:

- يقال إن له مفعولا سريعا لتهدئة الأعصاب.

ابتسم، قبل أن يقول:

- سأنتظرك غدا، إن لم يزعجك انتظاري.

أنهض، يتجنب النظر إليَّ لكنه يقول:

- هل تسمحين لي بمرافقتك للخارج؟

أومئ له بالإيجاب..

- هذه البطلة قد عادت إليكم.

يقولها لمنتظرينا في الردهة، تحتضنني «سعدة» كأنني عدت لها بعد غربة. في طريق عودتنا لم أطلب منهم الاستماع إلى موسيقى، فقط كنت أهمس بأذن «سعدة»:

- أحتاج لشراء حذاء جديد غير هذا.

كأنه كان جزءا من توصياته أن لا يسألني أحد عمّا دار هناك في تلك الغرفة المغلقة، حتى عندما قابلتنا «حمدة» التي كانت تنتظرنا في المنزل بعلامات الاستفسار على وجهها، لم أكن أنا المعنية بذلك، سمعتها تقول من خلفي «ماذا حدث؟» قبل أن يدب صمت من دون إجابة.

لم أفهم لماذا جعلني الحديث مع ذلك الرجل أقلب الملابس في الخزانة، أحاول أن أصنع منها شيئا متناسقا من دون أن أعلم أن كل ما يفعله «البدون» في حياته هو «الترقيع» للمضي قدما نحو يوم آخر وهو على قيد الحياة.

كنت أقف أمام المرآة عندما دعتني «كريمة» إلى العشاء، شيء فيَّ جائعٌ لغير الطعام، رحت أقرص وجنتيَّ بأصابعي، صار لونهما أحمرَ، أعض شفتيَّ بقوة فصار لونهما أحمر أيضا، أمسح ما تحت عينيّ فلم يتغير سوادهما! أزيح الأغراض من على المنضدة بجانب السرير لأتدرب على الجلوس على طرفها، أمسك الهواء كأنه كأس لأرتشف منه، وبغريزة

أنثوية بحتة، رحت أزيح الشريط المطاطي من على رأسي، أفرد شعري إلى الأمام. بهذه كنت أكبر كثيرا مما كانت أمي تسرحه.

طال غدي على غير عادات أيامي، لم أحسب عدد المرات التي بحثت بها عن ضوء الشمس من فناء منزلنا الصغير دون أن أجده، حتى إنني لم أعر أي انتباه لنجمتي المشعة، وحينما أنهكني السهر رتبت بعناية الملابس التي قررت أن أرتديها إلى جانبي ونمت.

لم يتغير الطريق، الوقت كذلك كان كما الأمس عندما مررنا بهذا الشارع، ورغم أن «سعدة» أعارتني حذاءها لأرتديه، إلا أنني كنت كلما نظرَت إليَّ عاتبتها لانها لم تبتع لي واحدا جديدا.

كان الصعود من الأرض إلى الطابق الحادي عشر طويلا بمقدار المسافة التي قطعناها من الصليبية إلى السالمية، لم يتغير شيء في المكان منذ البارحة إلى اليوم سوى أن تلك الموظفة دعتني إلى الدخول لغرفة الطبيب فورا من غير الجلوس معهم في ركن الانتظار.

كان هذه المرة يجلس خلف مكتبة يدون شيئا بالأوراق التي أمامه، رفع رأسه قليلا مرحبا بي ويدعوني في الوقت ذاته إلى الجلوس في المقاعد التي أمامه، وكما كنت أتدرب على المنضدة جلست على طرف المقعد، لربما مرت ثلاث دقائق قبل أن يبعد نظارته قليلا وينظر إليَّ من تحتها:

- هل حلمتِ بي البارحة؟

يقولها مبتسما، ينسف بها كل ما كنت قد حضَّرته من حديث:

- لا، كان ليل البارحة طويلا.

بدا أنها لكمات وليست كلمات! نهض من مقعده، انحنى على جهاز الهاتف ليطلب فنجانين من القهوة.

لكن الذي كان بالهواء البارحة عصير! لم أقل هذا له بل رحت أواصل اللكمات:

- هل تغير شيء في دراسات الأغذية هذا اليوم حتى تكون القهوة أسرع مفعولا بتهدئة الأعصاب من العصير؟
- هذا هو سؤالك الأول طوال عمر الحديث الذي أجريناه.

أجاب ثم جلس في المكان الذي سبق له الجلوس عليه وواصل حديثه:

- أحيانا السؤال يعني البحث عن المعرفة. أما الإجابات فهي تفادي الوقوع للأسفل، الحقيقة أنني عانيت كثيرا في التفكير إذا ما كنتِ قد نجحتِ في تجاوز حالة الدموع التي أنهينا بها حديثنا بالامس، ربما تغيير طريقة الاستقبال وتغيير العصير إلى القهوة يجعلنا نتجاوز هذه الحالة اليوم، كان على أيضا تغيير وقت مجيئك لكنني خشيت أن لا تكوني مستعدة قبلها.

يكمل:

- مؤسف أن لا يفصل الناس بين الطبيب الإنسان والطبيب المهنة، من دون معرفة أن الدقة في العمل تتطلب تمازجا حسيا حركيا مع كل شخص نواجهه.
- كيف يحدث كل هذا؟

أسأله مجددا، فيجيب:

- أما الحسي فهو التكفير الذي راودني وقلته لك قبل قليل، وأما الحركي فهو أن أغير الحذاء الذي ارتديته كما فعلت أنت ذلك.

كم عينًا يملك هذا الرجل؟ لا أذكر أنه نظر إلى أسفلي حتى ينتبه، لكن رغم هذا شعرت بأنه منتبه إلى كل شيء فيَّ، دفعني هذا الأمر إلى العض على شفتيَّ بين الحين والآخر.

يقول:

- من المفترض أن تشعري هنا بالراحة أكثر من أي مكان آخر، إن لم يدفعك أي شيء لهذا أو كانت أسئلتي لك قاسية بإمكنك الطلب فورا بتغييره.

كأنه كان يطلب الإذن لنقلي إلى حافة الوجع، أجيب عن أسئلته تارة وأترك الصمت يتكفل بها تارة أخرى، ومع مرور كل هذا الحزن الذي أعادني إليه كنت أردعه بجلوسي إلى الوراء، تتغلب طباعي على استعدادات لقائه. كان يستمع إلي بكل حواسه، لم يقاطعني مطلقا حتى بصمتي، يخفف حدة جروحي بين سؤال وآخر، قال في ما قال:

- هل كان لديك سيارة أحلام في طفولتك؟

- لا، ربما كنت أحلم بسيارة كبيرة لأبي تتسع لنا جميعا.

تنهد، اكتشف هذا الذي يجلس بقرب السماء سذاجة أحلام الفقراء، ربما كان ذلك الوقت المناسب له ليغلق المدونة الصغيرة التي كان يحملها:

- نحتاج الآن إلى صنع تغيير كبير في حياتك، أعلم تماما مدى صعوبة فعل هذا، لكنه أمر حتمي يجب علينا محاولته وعدم التوقف عند أول عجز نواجهه.

يضيف بعد أن شاهد علامات الاستغراب على وجهي:

- لا تقلقي، لن يكون الأمر كله على عاتقك، سنتحمل جميعا جزءا منه.

لم أعِ تماما ما كان يقصده بهذا، ولم يُتِح لي وقتا كافيا في البحث عن إجابات لحديثه أو حتى وجهه عندما راح يستأذنني للمغادرة إلى الخارج، وهو وإن كان قد بدأ اللقاء معتذرا عن ما تركني به البارحة، إلا أن زمام سيطرته على مشاعري انفلت من بين يديه، ففي خلوتي هذه وجدت جسدي يرتعد بأثر رجعي عن كل تلك الأسئلة التي كان قد طرحها علي قبل قليل.

أشعر بهواء المكان يتناقص دون سابق إنذار، أتنفس بقوة كأنه الشهيق الأخير، أصبح جسدي باردا، أمرر يدي بسرعة ذهابا وإيابًا فوق قدمي، أبحث بذلك عن الدفء المفقود بهذه الحياة، وفي فشلي الثالث للنهوض كان هو يفتح الباب، اقترب مني أكثر من مضى، مد ذراعه في المحاولة الرابعة معلنا نفسه بهذا الغريب الأول الذي يلمسني، أو أنه كان يملك الحد الكافي من الغرور الذي يرفض به أن يعلن لشقيقتي في الخارج عن فشله السريع معي، يدور بي في محيط المكان، يتلاشى صفير صدري بين الخطوة والأخرى.

- ليس عليك القلق من هذا، هي ردة فعل إيجابية على بدء تحسنك.

يقولها بعد أن أجلسني مجددا، كانت المرة الأولى التي يحدثني بها عن علتي، كنت أنظر إليه مباشرة، لم يفصل بين وجهينا سوى بعض الكتل الهوائية التي كنت أخرجها من فمي، ورغم كل الذي أنا به إلا أن شيئا كان يدفعني لتمييز النظرات التي يرمقني بها.

- لن تغادري هكذا، لا أملك قوة كافية على تكرار ما مررتِ به في المرة الماضية.

ثمة تناقض بين روحي والجسد، أرغب في أن أحدثه لكنني أواصل النفخ عوضًا عن ذلك، تجتاحني رغبة في أن أشعر بيده التي ما زالت ممسكة بي لكنها تستمر بالارتجاف، وحينما كسبت رغباتي معركة التناقضات هذه وجدتني أخسر كل الحرب بعد أن استجمعت قواي لأقول له:

- لست على ما يرام!
- بماذا تشعرين؟
- أختنق..

يسير بي إلى الجزء الزجاجي من مكتبه، ورغم سكون البحر الأسود البعيد إلا أنه يطلب مني أن أشعر بأمواجه تصطدم بقدمي.

لم أغرق.. بدا أن البحر هو ما جرف أحدا غيري نحو شفتي!

«يتسلقني، قبلها كانت رياح فمه تهز شجرتي..
تسقط ثماري بحضنه... ولا طاقة لجمراتي أن تصل لعلو مكمن شيطانه..
حان يوم نحري...حيث التحلل الأول من عذرية كل شيء..
- أشبهك في نفس المرض..
يقولها هذا الذي صنع بي عيدا وأضحية..
- أمن تكفير لذنبك هذا؟
أسأله، دونما وعي بأن حرفا واحدا هو الفارق بين:
الإحرام والحرام»!

‘‘‘

‘‘

‘

فيا من دنا..
حتى صار ظلي وظلالي،

يستبدلني بي! يصنع لي عالما مختلفا غير هذا الذي ألفته، بتنا نملك بفعل وصاياه لونا جديدا بدهان حيطان منزلنا، لم أسألهم عن الثمن، كانت قيمة هذا الشيء لنفسي أكبر من ذلك السؤال، تعددت مناسبات الخروج من المنزل، فهمت من حديثهم أنه تكفل بها جميعا، بذلك، كنت أعيد اكتشاف هذا الجانب البهي بالوطن، أرى وجوها لا تشبه محيطي، أسمع لهجات حديث لم آلفها من قبل، كأنني أعيد بذلك اكتشاف الكويت، تلك التي كانت أكبر من مخيلة طفولتي: مواطن حضري وبدون بدوي!

قد مات أهلي من دون أي حظوة فوق هذه الأرض، رسمت تلك القرارات المجحفة خارطة ضيقة لبلادنا، كانوا بشرا يعيشون بقوانين شريعة الغاب، تلك التي تنص على: البقاء للأشقى، في صليبيتنا وتيماء والجزء الاقسى في الجليب، فما نحن إلا أحفاد من احتضنهم ثرى الوطن، أبناء الظلام ولا شمس تشرق في بيوتاتنا، نحن التائهون في الغد، أولئك الساقطون عمدا من كل رسومات الخطط المستقبلية، يروننا خارج كويت 2035، ونرانا أمواتا بها وإن حيينا.

لربما كان من العقل أن نبقى مجانين هنا كي لا يقتلنا الخوف، لكنهم جميعا كانوا يرون فيّ تحسنا للأفضل، أسير معهم وبينهم مكتشفة الحقيقة وإن اعتقدوا أنني اكتشفت ذاتي من جديد، الحقيقة التي جعلتني أصعد ثلاثا في الأسبوع إلى الطابق الحادي عشر، وفي كل مرة كنت أحاول بقلة ما في جعبتي أن أصنع لي شكلا مناسبا، بينما هو كان يحاول صنع مضمون سوي لي، ومع مرور الأسابيع كان عدد مرافقيَّ يقل، «كريمة» وزوجها اتفقا مع سائق سيارة أجرة أن يقلني و«سعدة» إلى عيادة الطبيب، لم تأتِ «حمدة» إلينا يوميا، حتما أنهم فرحوا باستعادتهم لحياتهم أكثر من فرحهم بما ظنوه استعادتي لرشدي.

حفظنا عادات الدخول والخروج إليه، بل إن الأمر أصبح موعدا للقاء أكثر مما هو علاقة طبيب بمريضة، نجح في أن يشعرني بهذا عندما راح يتنقل في كل مرة أقابله بها بحديثه عن أشياء لا علاقة لها بمرض «الثنائية

القطبية»، ذلك المصطلح الطبي الذي عرفت به حالتي عندما سألته ذات مرة عن الذي أنا به:

- لا يمكن بأي شكل من الأشكال أن يدعي أي شخص أنك تعانين الآن من عارض صحي نفسي، كل ما هنالك أن الانهيار النفسي الذي سبق وأن كنت به كان مدخلا لما يعرف بـ«الثنائية القطبية»، وهي تعدد الشخصيات في كيان الفرد.
- لكنني لم أكن سوى أنا في كل حياتي.
- قلت إنه مدخل ليس إلا، أغلب الأشخاص في هذه الحياة ربما صنعوا في فترة من حياتهم شخصية متوفاة أو مشهورة أو حتى من وحي خيالهم، وتبادلوا التفكير والحديث معها، لكن الذي يعانون من هذا المرض يتقمصون هذه الشخصية ويعيشونها، أنتِ تجاوزتي كل ذلك.
- طالما أن الأمر أصبح من الماضي، لماذا أستمر بالمجيء إليك؟

قلت هذا الأمر من غير أن أفكر إذا ما كان هذا الوقت مناسبا لقوله، قد أكون تأخرت، أو ربما استعجلت كثيرا بقوله.

ذلك الإحساس بالراحة الذي كان يعمد على أن يمدني به منذ اليوم الأول أصبح طاغيا للحد الذي يمنعني من مراجعة أي شيء قبل التفوه به.

يأخذ كل وقته في الصمت ومن ثم:

- حسنا، إن كنتِ تعتقدين أننا وصلنا إلى نهاية هذه الجلسات فعلينا أن نتوقف لفترة من الوقت، على أن تكون المراجعات شهرية.

وقبل أن يسمع أي تعقيب لي، كان يقف ليدير وجهته نحو مكتبه، يخرج علبة مغلفة بجمالية ويقدمها لي:

- أزاح سؤالك هذا عبئا كان يجثم فوق صدري منذ أن لمسنا جميعا التحسن الكبير الذي طرأ عليك، لم أجد سبيلا في آخر خمس لقاءات لأن أفاتحك بهذا الامر، لكن طالما أن الوقت قد حان فإنني أستسمحك لقبول هذه الهدية لكي أجد سبيلا لمساعدتك في الانتقال للمرحلة التالية.
- أهنالك المزيد؟
- يجب أن يستمر هذا التغير لأشياء في حياتك أكبر من التي حدثت، كأن نسعى لإيجاد وظيفة لك، أو أن ننمي شيئا من تلك القدرات والمواهب التي تمتلكينها.

ثم يضيف قبل أن يشدني نحوه ليحتضنني:

- كذلك لأطمئن عليك.

أكره الأبواب ذات الاتجاهين، تلك التي حينما أتخطاها أشعر بحركتها إلى الداخل والخارج كأنها يدٌ تلوّح لي بالوداع، وهو الذي لم يفعل ذلك قد ترك التلويحة الاخير للجماد، أغادره بعد أن كسبتُ نفسي وخسرت لقاءه، وأنا ابنة المشافي لم أشاهد قط طبيبا يحزن لنجاحه، أهناك شيء غير ذلك الجانب الإنساني المشرق لم أنتبه له؟ وهو الذي لم يخسر بمجانية العلاج لي وحسب، بل راح يتكفل بكل هذا التغير الذي طرأ علي، أهداني لونا مزهرا على جدران منزلنا سيذكرني به، لا أعرف إن كان

من سيخلفوننا بالسكن سيعرفون قصتي معه إذا ما وقعت أعينهم عليها لأول مرة.

لم يكن ذلك الهاتف بيدي وبطاقته الشخصية التي دسستها بحقيبتي كل ما خرجت به، هناك فراغ كان قد تعثر به في حديثنا الأخير، حملته بقلبي في رحيلي أيضا وخرجت.

ليس كل ما نتركه يتركنا، ثمة تحولات خارجة على إرادتنا تبقينا أسرى لمتلازمات لم يطرأ في حسباننا أنها ستصبح قدرا، يرافقني سؤال إذا ما كنت ضحية تلك النهايات التي أصنعها بنفسي لنفسي، فحتى عندما كان هو بداية أشيائي الجديدة كنت أقلب كتابه إلى ما ظننته الصفحة الأخيرة وأمضي.

ثمة مفاهيم خاطئة نصر التعاطي على ذنب ارتكابها، يقولون كلما مرت سنة من هذا العمر كبرنا دون أن يعي الجميع أن حياتنا صغرت! نصنع بأفعالنا كل هذه السقوف لنعود بعدها ونشتكي من الضيقة! ألوم نفسي لأنني لم أكن سماء عندما بدأ بالتحليق معي وبي.

هذه النسخة الجديدة لي، يروننني كذلك وأراني مرتبكة من هذا الازدحام، بداخلي ذلك الذي لم أتيقن حتى بعد أيام قليلة من لقائي الأخير معه إن كان غادر حياتي حقا أم أنه للتو قد دخل بها، لم أعد مصدرا لقلقهم، عندما رحت أنشغل بالتفكير به أكثر من إغراءات الجنون التي استفزَّها ركون منزلنا للهدوء، ما زال هو رجلا وإن تعددت مواعيد لقائه، وما زلت ملتزمة عن ظهر غيب بمحاذير الطفولة التي تلقيناها من أمي

بعدم محادثة الغرباء خارج المقبرة، من غير أن نعرف حتى هذا اليوم لمَ كانت الحياة طبيعية بداخلها والموت بالخارج!

لم أتذكره، كان حضوره أكبر من فعل النسيان، لكن هؤلاء الناس لا ينسون سقوطك حتى وإن نهضت ألف مرة، ما زالت تلك الحواجز في التعاطي معي تسير وفق ذلك النهج المتمثل بالاختلال النفسي، كأن كل ما كان قبل ذلك لا شيء.. كأن كل الذي حدث بعد ذلك لم يغير شيئا.

باستقامة أمشي مع الأيام لكن إلى الوراء! وكلما طال عمر غيابه أكثر كبر الصمت فيَّ، ذلك الصمت الذي أشعل بي أولى فتائل حرائق الروح، اقتربت أكثر ممّا مضى إلى الانفجار، أكابد عناء الوقوف على أطراف قدمي في كل فعل رغم يقيني بحتمية السقوط.

الجنون هو أن يرى الناس شذوذ أفعالك، بخلاف ذلك تبدو سويا أمامهم، وبهذه الانتكاسة لم أعالج نفسي، رحت أضع غشاوة لتصرفاتي أمام أعينهم، أنام عارية، أفرش أكياس البلاستيك تحت السرير عندما عاد إلي فعل التبول في منامي، أستفيق كل ليلة مذعورة ألّا تشاهدني «سعدة» وأنا أنبش سلة القمامة لأضعها بالأسفل، وعندما أنتهي من ذلك أجلس بقية الفجر وأنا أضع يديَّ بداخل خصلات شعري محاولة تهدئتي من حالة الحركة اللاإرادية.

ذبلت كثيرا، ظنَّت أخواتي بصمتي وقلة حركتي أنني تجاوزت كل الذي كنت به، لكنني كنت أكثر خوفا من كل شيء حولي، لا أعلم كم من العمر مضى بلحظات الرعب تلك خوفا من اكتشاف الذي أنا به.

طاوعتهن عندما أجلسنني أمامهن ليضعن على وجهي مساحيق التجميل، شككن بإبرة طرفي ذلك الفستان الذي أرتديه، جعلنه متصلقا بجسدي قبل أن يلتقطن بهواتفهن المحمولة عديد الصور، سبق أن فعلن ذلك مع «سعدة»، بعد أن كانت تلك «الخطابة» طلبت منهن تصورينا بهذه الوضعية، وحتى عندما رحن يتحدثن عن غلاء العمولة التي تأخذها لقاء إيجاد أزواج لنا لم يتوقفن ولو للحظة عند حالة الرخص الجسدي الذي سيتم عرضنا به.

يفرضن علي وصايتهن مجددا، يخترن طريقا لحياتي من دون سؤالي عنه، لكن هذه المرة لم تكن بضاعتنا فردية بعد أن أبلغن تلك «الخطابة» بشرط زواجنا أنا و«سعدة» بالوقت ذاته، طلبت أموالا اضافية لتقديمنا على الأخريات في بازارها، زاد بذلك غلاء أسعارها وزدنا رخصا في ذلك.

- لاتخبري أي أحد بما كنتِ به.

سمعت هذه الجملة منهن مرارا، بل إنني اختسلت سمع ما هو أكثر قسوة من حالة الخجل من ماضيَّ المنفر لديهن عندما قلن إن «بتلة» ستعود إلى رشدها إذا ما تزوجت.

بنات مجتمعنا كن وما زلن، ذلك الذي يرمي بعلل أبنائه على الآخرين، ككل شيء بدأ للذكور ومحرما لنا ها هو يأتينا على طبق من التخلي عن قيمهم المزيفة، أو حتى عن الحقوق الإنسانية الأصيلة المتمثلة بالاختيار وتقرير المصير، لربما كنت أكثرهن تمسكا بهذا وإن كرهته، كأنني ما زلت ألتزم بكملة أمي لي عندما طلبتُ منها أن تبتاع لي

هاتفا أسوة بأخي فقالت «عيب»، بقي ذلك ملازما لي حتى وأنا الآن أملكه ولا أقوى على استعماله بعد، الأمر الذي وجدت به كريمة وحمدة نقطة إيجابية لصالح سرعة اقتناع العرسان بي، فعندما افتتح تداولنا، قدمت جموع من النساء إلى زيارتنا، كنت أتناوب و«سعدة» على الخروج لهن بحسب رغباتهن جراء الصور التي شاهدنها، التزمت بتعليماتهن بأن لا أجيب عن الاسئلة سوى بكلمة واحدة فقط، يأخذن هن زمام الاسترسال بالحديث من بعدي، ومن دون أي مراعاة لوجودي بينهن كنت أسمعهن يصفنني كل مرة بـ«الفقيرة» و«من أهل الله» قبل أن يختتمن بما اعتدن عليه: «حتى إنها لا تمتلك هاتفا محمولا!»، ذاك الذي ظنن أنه شهادة ضمان على عفتي وطهري ما هو إلا دليل على الاختلال الذي وصلت له، وحينما يأتي دور «سعدة» كن يستبدلن حديث الهتاف ذلك بعبارة «راعية بيت» أي أنهم سيحظون باثنتين: زوجة وخادمة!

المنزل الذي كان قبلة عطاءات الناس ها هو يتحول إلى سوق لتبضعهم، يتفحصنني و«سعدة» كأننا بضاعة من دون شهادة ضمان، نقدم نحن على ذلك قبلهن بيقين أن لا وراء متاح لنا في لعبة الحياة هذه، لكن حينما اتفقت الآراء جميعا بارت سلعتي، لم أتأخر عنهن بخطوة، بل تأخرت عنهن بزوج، ذلك الذي يسمونه «نصيبا» قد أتى سريعا لـ«سعدة» عندما استقر «مزادها» على الأكثر جدية في الإقدام عليها وليس الأكثر رغبة هي فيه.

لا أعلم إن كان الامر محض صدفة أم أنه مدبر بأن يقام حفل خطوبتها بنفس موعدي المرتقب مع الطبيب، نستعد كلانا على نقيض تأنق للحياة، أعود إلى رجل مثقلة بالضياع، وتستعد هي للذهاب إلى آخر ملأى بالاحلام في جفنيها، فلم تنم ليلة البارحة فرحا.

هذه المرة كما يجب أن أكون تمامًا وحدي، أقطع تلك الشوراع برفقة السائق الذي أحفظوه طريق ذهابي والإياب، تغيرت كثيرا منذ آخر مرة كنت بها هنا، ولم يتغير شيء فيه، الطابق الحادي عشر ذاته، مدخل العيادة، الاستقبال، الركن الذي أجلستني إليه الموظفة وهي تقول: دقائق وسيكون الطبيب بانتظارك.

ربما تكون نفس المدة التي أنتظر بها تعيشها «سعدة» الآن قبل أن تحظى يدها بالـ«نصيب» الموعود، أتخيل هذه الخطوات التي أقطعها نحو مكتبه أنها الطريق من باب منزلنا إلى آخره، أفتح الباب، يطل خطيبها عليها، أجده ينهض للقدوم نحوي، تنهض «سعدة» لاستقباله، وحينما مد الطبيب يده لمصافحتي، كان هو يمسك يدها ليضع الخاتم به، بقيت أصابعها في قبضته، بينما تركتُ يده تلتف حول جسدي عندما احتضنته منهارة له ومنه وإليه.

أخبرته بكل شيء، سوء الحالة النفسية التي وصلت لها، عودتي إلى تلك الأفعال اللاإرداية، قلت له كل الأشياء التي حفظتها عني والأخرى التي خشيت نسيانها ودونتها في إحدى الأوراق.

ثمة اسباب عديدة للحياة ليس من بينها أن تكون هكذا، ففي ما مضى من هذه الأيام كنت أختبئ بداخلي عن الحديث الذي بداخلي! فكل ما يفكر به الإنسان يظل ناقصا للإيمان الكامل طالما أنه بقي في جوف العقل، وأنا التي عندما رحت أبوح به للمرة الأولى اكتشفت بين جنبات حديثي أنني أصبحت لبقية أهلي أشبه الوطن أكثر من كل شيء آخر، هذا الذي كنا أنا وإياه عالتهم وعلتهم، حجر العثر أمام كل الأفراح المنتظرة والمزروعة دون أن يقوين على قطافها طالما أنني كنت شللا في أطرافهم.

لم يؤكد ذلك أو ينفِهِ، بل راح يوافقني تماما عندما ترك كل الوقت لثرثرتي واكتفى بالإيماء برأسه بين الحقيقة والأخرى.

- هل أنت مقتنعة بهذا الحل الذي سلكوه؟

سألني أخيرا عن ما كنت أريد أن أساله عنه..

لم أجبه، أدرت وجه السؤال ودفعته عليه:

- لا يمكن أن أكون شريكا لهم بذلك بهذا الامر، حتى وإن أجبتك عن السؤال سيبقى القرار الفصل لك.

نسي من كان يجلس فوق ناطحة السحاب أن أشد أنواع الفقر الذي أنا به كان قلة حيلتي من خيارات الحياة.

- أهذه موافقة ضمنية؟

يتدارك الموفق:

- لا يمكن لك تأويل حديثي بهذا الشكل.

يصمت برهة قبل أن يضيف بعد أن فرغ مني:

- لدي ارتباط مسبق بالسفر إلى الخارج في وقت مبكر من صباح غد، وحينما أعود لن أكتفي بمهاتفتهم، اتركي لي عنوان منزلكم وسآتي لترتيب حل كامل لهذا الموضوع.

يهرب، أو أنني أنا من فعل ذلك عندما تركت له عنوانا لن أكون به حتى إن كان صحيحا!

أعود بخيبتين، وسؤال ظل يرافقني مذ أن سلكت طريق الذهاب له: ياترى كم سببًا أملك للحياة؟

تمر كل سيارات الشوارع التي أسلكها برأسي، أفرزها بحسب اللون تارة وبحسب الراكبين بها تارة أخرى، لا أعرف لماذا أعود لفعل ذلك الأمر، كأنني بذلك أحاول نكران كل هذه السنين التي مرت بممارسة لعبة الطفولة تلك، أربعتنا في حوض السيارة، تختار كل منا لونا لتفوز عند وصولنا.. أكثر العابرين منه بنا.

لكن لماذا أضفت الراكبين بها في حسباني هذه المرة؟

أصل آخرا وليس أخيرا، وكعادتي منذ الطفولة كنت صاحبة المركز الأخير بينهن.

أتلقى من «سعدة» حضن فرحتها ومواساتي بهذه الخسارة، وضعت يدي على فمي، حاولت أن أطلق صوت زغاريد كما يفعلن بمثل هذه المناسبة، لم يخرج صوت الفرح من فمي، حل عويل بدلا منه.

لحقتها كريمة وحمدة، وجدتهن متأنقات أيضا، لكنهما عندما سمعتا غصتي بصوت الفرح بكتا.

فها هي آخر لياليّ هنا تتدلى، اقترب وقت شتاتي الأخير، لم أعر أي اهتمام لحديث المواساة الذي رحن يقلنه لي بأن هناك المزيد من الأشخاص المهتمين بخطبتي، لكن حديثا آخر كان يتداول بجدية أكبر من ذلك:

- ماذا عن بتلة؟

سمعتهن يرددنها.

- لو كان بيننا رجل لما احتجنا إلى هذا السؤال.

سمعت ذلك أيضا..

جمعتُ شجاعة أخي، صرفت أنظارهن بسكين احتفظت بها بعيدا عن أعينهن، تناولت القلم أولا، أكملت رسم جدارية موتانا، قررت أخيرا أن أرسمها واقفة بقدميها، جلست أنا مكانها في ذلك المقعد المتحرك، تعبط شقيقاتي بي، تناثر شعري حولهن، أمامي ذلك الرجل البدين بلحيته الكثة الطويلة ويده المخبأة وراء ظهره، ماتت بي الحياة منذ لسعته الثانية، تحولت روحي إلى دخان.

كشفت عن معصمي الهزيل، لاح أمام سكيني وريد يدي الأخضر، نكزته بطرف السكين أولا، انتفض جسدي وبقي الدم محتبسا بداخله، حفظت مكانه عن ظهر غيب، أغمضت عينيّ ونكزته ثانية بقوة.

شك

يمسك يدي، يفك اللفافة البيضاء من حولها

ينفخ من فمه هواء خفيفا عليها فتتدفق بعض روحه في وريدي:

- هل يؤلمك جرحك؟

رغبت أن أتنفس هواءه.. أن يمتلئ صدري من فمه:

- اعتدت شعور الألم... لكني أرغب دائما بحكها.

يفعل هو ذلك، يمرر راحة يده حول معصمي، يقشعر جسدي.

- أيناسبكِ هذا الآن؟

يترك إمضاء مغادرتنا بسؤال، كأنه اعتاد على متلازمة صمتنا الأخير في الحديث.

‘‘‘

‘‘

‘

فيا من دنا..

بهوائه الذي صار دما في وريدي، وأنا التي طلبت الموت بعناق سكّيني الأول له، لكن ذلك لم يحدث، ما زلت تسلية القدر؛ ينقلني من وجع إلى آخر، حتى عندما اخترت «الموت الحرام» كان هو من يسعفني نحو الحياة، استفقت على ربكة تحيط بي من كل اتجاه، سألتهن «من أنتن؟»، أجبنني بأنهن الممرضات في المشفى، ملائكة عذابي المستمر اللاتي لم

ينفع معهن إلحاحي بتحرري والذهاب إلى أمي، لم أقوَ على الصراخ لكن التوسل ما زال يجري على فمي.

تسولت موتي، رفض القدر وسيارة الإسعاف أن يعطياني ذلك، وسدوني السرير الأبيض، وعندما حاولت بهزال جسدي أن أقاومهم، قيدوا ذراعي حول الطرف الحديدي للسرير.

يُتمي الثاني كتب عليّ التكبيل..

كانت هذه المرة الثانية التي أحاول بها الانتحار، رغم عنايتهم بي في المرة الأولى بغسيل ما في معدتي إلا أنني لم أكن أملك ملفا في هذا المشفى، كأنهم لم يهتموا لعلاجنا، فقط يقومون بتجهيزنا لمواجهة الموت التالي الذي ينتظرنا في الخارج.

الموت الذي لا يفضحه انعتاق الروح من الجسد، الموت هو أن تدفن أحلامك في منازل الصليبية، أن تعبّد دموع ابنتك طريق عودتك إذا ما طردوها من المدرسة لعدم سداد الرسوم، الموت المبكّر، أن تكون حيا لكنك لا تعيش، ألا يطرق العيد باب منزلك، لا ثياب جديدة، ولا نقود باقية في جيبك لتوزيعها على أطفالك، أن تنام ويبقى تفكير الغد مستيقظا بداخلك، الغد الذي تجهل ما فيه إلا اسمه وتاريخه، تاريخا تُسأل عن ماضيه ومكان وجود جدك فيه هو بالأصل تهمتك، كأنك بالغد الذي لا تعرف منه شيئا سوى تاريخه.. تورث تهمًا إلى أبنائك، تهمًا تتعلق بالانتماء والعزل الذي يمارس بسكين ناعمة، لا هي تقتلك ولا تعتقك.

كم موتا عاش في البيوت المنخفضة؟ كنت أكثرهم تحررا، قبلي كان أخي كذلك.. عندما اخترنا أن نسدل الستار عن مسرحية الوطن، لو أنهم كانوا مثل تحررنا لما بقي أحد منهم يتنفس، أو ربما كنت وشقيقي أكثرهم ضعفا، عندما اخترنا الطريق الأسهل للخلاص، طريق الموت، وهم ببقائهم هنا وهناك يسطرون ملحمة الحياة في مواجهة كل شيء.

رغم هذا كله لم أمت، كأنني بإنقاذهم لي أصبحت أكثر البدون الجبناء على قيد حياة الصليبية وشبيهاتها.

يُقلق أنيني تلك السيدة التي تجاورني في السرير الأبيض، أنتبه لها تفتح حاجز القماش الذي يفصل سريرينا على استحياء، قبلها كانت قد نادت مرارا الممرضات للاطمئنان عليّ، ربما لأنها انتبهت للقيود التي تسورّت يدي، تستجمع شجاعتها لتفتح حاجزنا، تقف إلى جانبي تمرر يدها على رأسي، أنظر لها مستذكرة طفولتي في المقبرة:

- سلامتك يا بنتي.. سلامتك.

تبلل ورقة منديل وتمررها حول شفتي، حاولت قبل ذلك أن تنهضني لتسقيني الماء دون أن تقوى على ذلك.

نمت على مسحها لرأسي، أعادت كفّها سنوات اللامبالاة من النوم، وعندما استفقت مجددا على صوت شقيقاتي من حولي، طلبت من «كريمة» أن تزيح الساتر قليلا لأرى تلك السيدة، كأنني اشتقت سريعا لها، أو أنني وددت شكرها على إرخائها النوم على جفنيّ بمسحة رممت رأسي المتصدّع، لا أذكر متى أطبقت عيني بارتياح دافئ مثل هذه المرة.

لـم أجـدها، أو أنني لـم أستطع التفتيش عنهـا جيـدا، وعنـدما أغلقـت «كريمة» ذاك الساتر علينا، عاودتْ سؤالي عن سبب طلبي، لـم أجبهـا، مـا زلت في التحديق أرتب أفكاري وأتبعثر في جهة سرير تلك السيدة:

- أخبرونا أنك بعد شفائك لن تستطيعي الخروج معنا.

قالت حمدة. لم يغير الأمر شيئا من انصراف انتباهي عنهن.

- لكننا لن نتركك.

تضيفها. أغرق في نظري إلى ذلك الجانب أكثر، قبل أن أقول لهن:

- متى ستعود أمي؟

لا أعرف لمَ قلت أمي، كنت أقصـد تلـك السيدة، أعلـم تمامـا أن أمـي ماتت منذ فترة، لا أذكر أيا من الموتى استطاع الهروب للحيـاة مجـددا، لا أعرف أصلا لِمَ لم يفعلوا ذلك إن كـان باسـتطاعتهم فعلـه، لمـاذا يشـحّون بالحضور في كل أحلامنا؟

تقول «سعدة»:

- أمي ماتت يا بتلة.

أنفض يديّ المقيدتين، أعجز حقا أن أقول لها إني أعلـم هـذا، يمسـكن بي، تأتي الممرضات إلينا، تتسرب شـقيقاتي مـن حـولي تباعـا، لا يهـم مـن كانت الأولـى أو الأخيـرة، لكنني تمنيـت بقـاءهن عنـدما تصـلَّب جسـدي فجأة، أطبق فمي على نفسـه، لـم أعـد أقـوى علـى الصـراخ، ابتعـدن كثيـرا عني، كثيرا بالقدر الذي أصبحت به وحيدة.

تمادى جسدي في التحول إلى قطعة خشبية بين الحين والآخر.

دقوا المسامر الأخيرة في نعشي..

عندما سألوني ذات مرة إن كان ثمة ما أود الاحتفاظ به من منزلنا:

- ستتزوج «سعدة» بعد أسبوع من الآن.
- ومنزلنا؟
- لن يسمحوا بخروجك من المشفى قريبا.

أطلب من «سعدة» أن تضع رأسها على صدري، هذه المرة الأخيرة لي في صدارة سلم أولوياتها، حلوا قيود يديّ، احتضنتها قبل أن نتصلب سويا.

بدأ غيابهن عندما سمحوا لي بالسير قليلا بممرات المشفى، أرادوا أن يتدفق الدم بأقدامي، ترافقني تلك السيدة في خطواتي المتعثرة:

- لم أمشِ منذ فترة.

أبرر تشبثي بها.

تضع يدها الأخرى فوق يدي:

- لا عليك، ستعودين قريبا إلى السير كما السابق.
- وهل يعود الماضي؟

لم تجبني، كان طفلا قد حط ركضا عليها، لم يكن ذلك الممر سوى سمائه التي سقط منها علينا، تتبعه فيما بدا أنها والدته. أنسحب من مشهدهم العائلي إلى سريري، فتنكشف قدرتي على السير دون مساعدة أحد.

أسمع حديثهم بجانبي، طافوا العالم بي، لا أعرف حقا عدد أفراد أسرتهم وهم يتناقلون أخبارهم من الأقصى إلى الأقصى.

يلعب الطفل بالستارة التي تفصل سريرينا، يمد رأسه نحوي، يبتسم ثم يغيب خلف الستارة.

أغمضت عينيّ وأنا أنتظر الطفل يطل علي مجددا، أيقظتني الممرضة لتطعمني العشاء، يبدو أنهم استغلوا نومي لتقييد يدي مجددا، طلبت منها أن تزيح الساتر، فعلت ذلك دون أن أرى السيدة في سريرها.

لم أسألها عنها، كنت عوضا عن ذلك أرفض تناول المزيد من هذا الطعام الباهت، لم تناقشني كثيرا، أضافت المخدر للسائل الوريدي ومضت.

وهكذا بقيت.. وهكذا استمروا، حتى عندما جلس رجلان إلى جانبي لم يترك المخدر الذي ملأ دمي أي إجابات منطقية للأسئلة التي حاصروني بها.

قالوا إن تقرير الأطباء المشرفين على حالتي يمنعهم من تسجيل قضية «شروع بالانتحار» بحقي، سيحتاج الأمر إصدار قرار بتحويلي إلى لجنة في مستشفى الأمراض النفسية للكشف عن قواي العقلية.

حتى ذلك الحين كانوا يتعاطون معي كأنني «مجنونة»، سمعتهم ذات مرة ينعتونني بهذا في منزلنا.

لكن كل ما بهذه الكلمة كان يحيلني إلى الماضي أيضا، عندما كنت أقف بجانب أمي في مركز توزيع المواد التموينية في «الصليبية» نستجدي

ما يتركه المشترون في بطاقاتهم، اقترب منا ذلك الرجل الذي كان يتشاجر مع نفسه، بقدميه الحافيتين وملابسه الممزقة وشعره الكثيف، وعندما أصر على أن يتلصق بأمي أخرج له أحد الواقفين سيجارة وأعطاها له لينصرف عنا.

سبب لي منظره رعبا من كل أولئك المضطربين نفسيا، لكن عندما عدنا بعد حين إلى مركز المواد التموينية كانت أمي قد وضعت علبة دخان في حقيبتها لتشهر بوجهه سيجارة كلما اقترب منا.

لم يكن مجنونا، كان قنوعا بأن يأخذ واحدة فقط لينصرف دون أن يطلب المزيد، كأنني هو، أقنع بحبسي في المشفى، أراقب القطرات التي تهبط تباعا من ذلك الأنبوب لتستقر بداخلي، لم أتجاوز في العد الخمسين قطرة، تستسلم عيناي قبل ذلك.

كأنه لم يكن أنبوبًا وريديًّا.. كأنه هو

تشبح عيناي لرؤياه، غاب بقدر ضعف شوقي له

وعندما سبق صوته أقدامه جمعت قواي لخصامه

أطل.. نسيت بوجهه جوع عيني لرؤيته

خرت قوى الخصام سريعا:

«وينك؟».. لم أنطق بها، قالها انكساري له..

تلذذ بشوقي، بان ثغره كشمس أشرقت بعد عتمة:

- أحقا انتظرتِني؟

أدير وجهي عنه، ليس خجلا وإنما رغبت في استمرار تأرجح سؤاله الأخير لحين لقاء.

،،،

،،

،

فيا من دنا

لوصول، كن محطتي الأخيرة، كالحضن الأول بعد غربة، وما الأحضان سوى شراكة روحين في المشاعر، كعناق الأخوة الأخير، ذاك الذي جمعني مع «سعدة»، فمن ظننتهم سابقا أنهم يكفون ذنوب زواجهم ها هم يعيدون تكرارها معي، لا أعرف إن كانت قد تزوجت فعلا أم أنها تتجهز إلى الآن لليلتها.

لـم تـزرني شـقيقاتي منـذ فـترة، صـرت بهـذا قصـة أخـرى عـن إهمـال المرضى يتداولها موظفو المشفى في مجالسهم، لكنهم في الوقت ذاته باتت خطواتهم نحوي أكثر حذرًا، أطلقوا حكمهم بجنوني حتى قبل أن يأتي ذلك الفريق الطبي من مشفى الأمراض النفسية لزيارتي، ذاك الذي قدم صبيحة يوم لا أعرف اسمه أو موقعه من التاريخ.

سألوني عن اسمي:

- بتلة.
- أسماء أفراد عائلتك؟
- كلهم أموات، ربما استبدلوا أسماءهم في الحياة الأخرى التي هم بها، أخشى أن أتفوّه بأسمائهم التي حفظتها لكم الآن فأفقد بذلك قرابة الأسماء معهم.
- وهل فعلا كلهم أموات؟!
- لا أعرف إن كانوا جميعهم كذلك.. لكن ما نفع حياة الأهل إن كانت لا تبث فينا الروح؟!
- ما هي لعبة طفولتك المفضلة؟
- «الغميضة» بين شواهد القبور.
- هل من شيء يخيفك؟
- نعم، رجال الدين الذين يخبئون يدهم خلف ظهرهم.
- هل تصلين؟
- عندما ماتت أمي قالوا لنا أنْ لا صلاة للنساء على الجنائز.

- أَمِن سؤال عالق بذهنك دون إجابة؟
- ربما سؤال ذلك الرجل: لماذا كان يكتفي بأخذ سيجارة واحدة من العلبة؟
- هل تعرفينه؟
- لا، أنا لا أعرف المجانين.
- هل ترغبين في العودة إلى المنزل أم البقاء هنا؟
- لا أدري إن كان بقي لنا منزل، سمعتهم يقولون إن «الصليبية» قد يتم إزالتها قريبا، أريد العودة إلى المنزل لكنني لا أريد فراق السيدة التي بجانبي.
- أي سيدة؟
- التي خلف الستارة.

يزيح أحدهم الستارة، كان ما يزال الطفل مختبئا خلفها، تنام تلك السيدة على جنبها في السرير وهي تنظر إليّ وتبتسم.

يصمتون طويلا، يقول أحدهم:

- لكن لا يوجد أحد هنا، مجرد حائط، والسيدة مرسومة عليه. من أعطاك القلم للرسم؟
- هي.
- تحتاجين إلى الانتقال لمكان آخر لتلقي العلاج.
- لدي سؤال: ما هو الوطن؟

لم يجيبوا، صمتوا معلنين رسوبهم في سؤالي الوحيد وأنا التي أجبت عن كل أسئلتهم دون ترك أي سؤال، سكتوا عندما أدركوا أن وطن إجابتي هو الفراغ، لكنني عندما احتفظت بهذا السؤال إلى حين لقاء جمعني به أجابني بشيء مختلف:

- الوطن هو ابتسامة المراهقة الأولى، طريق المدرسة، عامل النظافة الذي يجمع قمامتنا لنبقى نظيفين، أو أنه هو الشيء الذي يبقى بين الذكريات والغد، أتعملين حقا أنني لا أعلم كيف يكون الوطن في كلمات!

ربما كان محقا، لا أحد يعرف كيف يكون الوطن بالكلمات، لكني لا أعرف أيضا كيف يحب كل هؤلاء الحمقى وطن فقرهم والحرمان، أذكر أن إحدى المعلمات في سنيّ دراستي القليلة قالت لنا في خضم ما كانت تشرحه أن الأشياء تتمدد في فصل الصيف بفعل الحرارة وتنكمش بالشتاء من البرد، رفعت يدي لها لأقول إن منزلنا كان كما هو في الفصلين، لو أنها لم تضحك على ملاحظتي تلك لقلت لها لماذا لم يتمدد خير الوطن لنا، لماذا نعاني من شتاء الكويت طوال أيام السنة؟

عندما طال صمتهم أمام سؤالي، هربوا بسؤال أخير:

- هل تفكرين بالانتحار مجددا؟
- لا، أصبح لدي فضول في اكتشاف المحطة قبل الأخيرة لحياتي هذه.

وقعوا على أوراق ترحيلي من هنا:

- خلال يومين سيتم نقلك لمكان آخر تتلقين به عناية أفضل.

يومان فقط قبل أن أتحول بنظر الأطفال من مريضة إلى فزاعة يخشون الاقتراب منها، سأصبح «مجنونة» بعد غد، أي أن «العقل» سينضم إلى قائمة المفقودات من حياتي، سيسمح لي الدين والمجتمع بالرقص عارية إن غنى أحدهم بجانبي، سأنزع غطاء رأسي دون أن يهددني أحدهم بأن الله سيحاسبني على ذلك، سأنفث دخان سيجارتي بوجوههم دون أن ينعتني أحد بـ«عاهرة».

يومان فقط ويصبح كل الحرام حلالا، ستسقط كل كلمات الـ«عيب» التي قالتها لي أمي في طفولي كسقوطي هذا من إنسانة في عين الدولة إلى فاقدة للأهلية لا يُسمَح بقيد قضية شروع بالانتحار بحقها.

ربما كان الجنون إيذانا بتحرري من كل هذه القيود، القيود التي وضعها الدين والوطن والمجتمع، لا أعلم من سيحاسَب على كل ذنوبي التي سأرتكبها بشرعية الورقة التي تقول إنني لا أصلح للحياة الطبيعية.. أنا أم هم؟

لن أكون «المجنونة» الوحيدة في الصليبية، كل أهلها كذلك دون أن يشعروا، فالجنون هو أن تقف على أطراف أصابع قدميك وأنت تنظر إلى الآتي، أيهما سيسبق الآخر في وصوله إليّ.. الموت أم قرارات من الدولة تسمح لك بالحياة؟! الجنون ألا يكون لك حلم سوى مقعد مدرسيّ لابنك، أن تكون كل أمنيات ابنتك غرفة تخصها، أو أن تشتهي سؤال

طفلك ماذا يريد أن يصبح في المستقبل دون أن يتعثر بتاريخ البطاقة الأمنية المنتهية.

الجنون ألا يكون لك مستقبل..

وأنا مستقبلي سيبدأ بعد يومين من الآن.

ألا تكون عاقلا فأنت تتخلص من نقد المجتمع، في لباسك وحديثك وتصرفاتك العفوية، يعني أيضا أن تحظى بصدقاتهم كلما طلبت أمرا إما تقربا من الله وإما خوفا من ردة فعلك.

ماتت أمي بكامل عقلها بعدما رفضت الدولة أن تمنحها سريرا للعلاج، وسأعيش أنا بكنف الدولة ذاتها لأني فقدت عقلي بنظرهم، أي أنهم سهلوا موتها ليسقط رقم من تعداد البدون.. أي أنهم سيسهلون إجراءات علاجي كي لا تصبح هذي الأرض وطنا للمجانين!

يومان فقط، حظيت خلالهما بلقاءٍ لم أعرف إن كان الأخير مع ما تبقى من أهلي، قدمت «كريمة» وحدها لتوديعي، سألتها عن حمدة قالت إنها منشغلة قليلا، سألتها عن «سعدة» قالت إن العادات لا تسمح بخروج العروس الجديدة من منزل زوجها في أيام العرس الأولى.

أجلستني على السرير، طلبت منهم فك القيود عني، وقفت خلف ظهري تمشط شعري، استغللتُ وقوفها خلفي للبكاء، تواسيني بأن إقامتي هناك لن تطول كثيرا وأنني سأعود إلى حياتي الطبيعية بعد فترة وجيزة، أعلم تماما أن كل هذا لن يحدث، أسألها:

- هل ستأتون لزيارتي؟

- لن نتركك.

تكفكف دموعها فتقول لي:

- إن قال العالم كله إنك مجنونة لا تصدقيهم، لن نفقد إيماننا بأنك ستعودين كما السابق، اهتمي بمظهرك هناك، لا تتحدثي مع أحد غير الأطباء، ارسمي على الأوراق، لا الحيطان، أو استبدلي بالرّسم القراءة مثلا، أو اكتبي لنا رسائل من هناك، افعلي أي شيء إلا أن تموتي.

تصمت قليلا قبل أن تنهار بعناقي:

- أكره أن أعود إلى المقبرة، أن أخسر أحدا آخر من أهلي، بفقرنا أتوسل إليك ألا تجربي الانتحار مجددا، لو أن الموت كان خلاصا لفعلت هذا قبلك، الحياة هي خلاصنا من هذه الحياة.

لم تكذب، إن الحياة هي الخلاص من الحياة، لكنها لا تعرف أي حياة!

كأنها لا تعرف أن حياة أخرى تنتظرنا هناك، حياة نتساوى جميعا بها، نقدم إليها عراة كسابقتها، دون أي لقب تأخذه من ظهر والدك، حياة تقدم إليها عبر قبر من رحم الأرض وليس من رحم أمك.

جاء يودعني، أو أنه أتى لينسكب من بين يديّ
كماء، أقبض عليه فيتسرّب من بين أصابعي:
- سأسافر مرة أخرى لعدة أيام إلى مؤتمر عمل في أوروبا.
لم أسأله عن مدة الرحلة:
- كم ستبعد عن هنا؟
فكر قليلا بها، صار ممر المشفى مطارينا..
يغادر.. لأعود بسفره نزيلة بين المجانين:
- كل مكان لا نرى به من نحب هو سفر!
يصمت أيضا قبل أن يضيف:
- الوطن هو من نحب.. كل هذه الخرائط هي دول.
غادر دون سؤال.. لوّح بيده فقط هذه المرة.

،،،

،،

،

فيا من دنا..

لرحيل، كن ظلك الذي يتمدد على الأرض رافضا المغادرة، كأننا به نحظى بعناق أخير، كالذي كنتُ عليه قبل أن يأتوا لأخذي إلى مأواي الجديد، رتبت «كريمة» أمتعتي بعناية، دون أن تعرف أساسا أن الفوضى هي تمام العقل، وما هذا الترتيب إلا صنع فراغ يمهّد لسبات العقل.

نادوا علي:

- بتلة نعمة، هل أنت مستعدة للمغادرة؟

أومئ لهم برأسي بجاهزيتي، فاقتادوني بأيديهم إلى ذلك الباب الكبير للمشفى، لم أرفع نظري عن الأرض، أشغلت نفسي بعدّ الخطوات من سريري إلى الباب، كانت 119 خطوة، حسبتها لأهرب من نظرات الناس المليئة بعلامات الاستفهام حول مرافقتهم لي، طرحوني ثانية على السرير في سيارة الإسعاف، قيدوني بثلاثة أحزمة، اعتذرت إحدى الممرضتين بابتسامة خجلى عن فعلتهم هذه، تنفست شفتاي الصعداء بابتسامة باردة، بدا لي أن هدوئي وترتيب «كريمة» نجحا في إقناعها بعكس ما جاءت إليه.

طلبت منها أن تُنهضني قليلا إذا ما وصل الطريق بنا إلى محاذاة المقبرتين، بقيت طوال هذه المدة أسأل نفسي لماذا أخي وأمي دُفنا بالمقبرة المقابلة لمقبرة أبي، لاحقا عرفت أيضا أن للموت مذاهب مختلفة، كأن طريق جنة الجثمان سيكون أقصر من الجثمان المدفون في المقبرة بالشارع الآخر!

في طفولتنا ما شعرنا يوما باختلاف صلاة أبي عن أمي، بل إنه كان متلهفا أكثر منها على موعد نذرها السنوي، نفترش الأرض حول «غدا فاطمة» تذكره أمي وهو يتناول لقمة طعامه الثانية:

- لا تنس أن تطلب «مرادك».

ينفض يده، نصف كلماته يقولها في داخله وتمتم بالنصف الآخر وهو يرفع كفيه من أعلى صحن الأرز المملوء بالبقوليات.

يكرر الأمر ذاته بمنتصف أكله، يبدو أنه نسي «مرادًا» آخر لم يطلبه من صاحبة وليمتنا.

يفعلون الأمر ذاته في ليلة عاشوراء، عرفت هذا الاسم عندما كبرت قليلا، قبل ذلك كنت دائمة السؤال لأمي:

- متى سيأتي «الطبق»؟
- بعد العيد الكبير بشهر.

يأتي عيد الأضحى بفرحة احتسابي لـ30 ليلة أو أكثر بقليل عن موعد طعام «الهريس» والعصير المحلى الذي تعده أمي لنا، وفي نهار اليوم التالي كانت أمي تلبس الأسود وتتفرغ للجلوس أمام التلفاز تستمع إلى «الشيخ» وتبكي بحرقة، قبل أن يأتي والدي بـ«قدرنا» وهو مليء بالأرز واللحم.

بين مذهبين نشأنا.. وكأن لا مذهب للفقراء سوى الفقر، لذا لم نشعر بكل الفراق بينهما، أو أن معتنقي هذه المذاهب كانوا يتبادلون حجارة البغضاء من فوق رؤوسنا فلم نشعر بها.

تفك الممرضة الحزام المرابط على صدري، تنهضني قليلا، ها قد وصلنا إلى المسافة «صفر» من الشوق، تحتضن عيناي أسوار المقبرة من بدايتها، أدفن مئات الموتى كلما رمش جفني، أخي وأمي أول مرورنا بذلك الشارع، ألتفت للجهة الأخرى، كانت الصليبية، كانا يعيشان الموت –معا– هنا على يميني وعندما ماتا دُفنا متفرقين على يساري!

أرفع كف يدي المقيد لأسلم عليهما، لم أُمِل رأسي عليهما كثيرا، فأبي كان ينتظرني أيضا، كبرت كثيرا يا أبي، كبرت بالقدر الذي ما عدت أهتم بأن تسمي أيا من أغنامك على اسمي، لم أكبر وحدي وحسب، كبرنا كلنا يا أبي، كبرنا بمقدار الفراق، لا تسألني لمَ أنا هنا، فوحدهم المجانين لا إجابات مقنعة لديهم، لمَ أنا وحدي؟ أين يداي؟ لمَ قلبي تسارعت نبضاته؟

لو أن هذا الشارع ينتهي هنا لاستطعت أن أجيبك عن كل هذه الأسئلة، لكنه استمر إلى حيث اللافتة التي قادتنا إلى مشفى الأمراض النفسية، فكوا أحزمتهم وأنزلوني إلى المكان المنشود.

التقطوا صورة لي، لم أبتسم عندما أومض الضوء بعينيّ، قادتني ممرضتان أخريان إلى دورة المياه، سألتهما أن يتيحا لي الاستحمام بمفردي، لكنهما رفضتا.

اغتصبتا حيائي بعد أن انتزعتا من على جسدي كل ملابسي، أصرخ بهما لكنهما تصرخان أيضا، أدفعهما فتقومان بنفس الفعل معي، وصلت أيديهما إلى كل جسدي، اختنقت ليس بمائهم وإنما خجلا لمّا استحل جسدي.

عندما فرغتا من ذلك، عرفت المعنى الآخر للجنون، فالجنون هو أن تفقد ثقة الناس بك، كأن لا يسمح لك بقفل باب دورة المياه.

أضافوا لقبا لاسمي أيضا، أصبحت الآن «نزيلة».

شكلت سريعا انطباعي عنهم، تتصف الممرضات بقسوة عكس اللاتي كن هناك في المشفى العام، يتصرفن بخلاف قوانين العدالة، كلنا

«مجانين» إلى أن نثبت عكس ذلك، وكيف لنا أن نثبته تحت سطوة كل تلك القيود والقسوة التي تحيط بنا.

أدخلوني في حجرة عامة بها أربعة أسرّة، استغللت أكثرهن لطفا لأسألها عن هذا المكان:

- إنه مؤقت ريثما يكشف الأطباء على حالتي ومن ثم يتم نقلي للقسم المناسب.

لم تكتفِ بتلك بالإجابة، بل حاولت تهدئة روعي، وعدتني أيضا بأن الأمور ستتحسن يوما بعد الآخر، وسأعتاد هذا المكان.

لكنها على عكس محاولتها النبيلة تلك، لم تأتِ على ذكر خروجي من هنا! زاد هذا الأمر من وحشتي بالمكان الذي أنا فيه، أرخيت رأسي على تلك الوسادة، بللتها بدموعي، أشعر بقلبي يهبط إلى أسفل نحو قدمي كلما سمعت خطوات تقترب مني، كانت المرة الأولى عندما قدموا بطعام الغداء، بقي على حاله، وكانت المرة الثانية عندما أتوا بطعام العشاء، بقي على حاله أيضا، وعندما انتبهوا إلى ذلك أمرتني إحداهن بلهجة جافة أن أتناول الطعام وإلا..

وهكذا استمر دوراني في متاهات التهديد تلك، منذ المرة الأولى التي مارستها شقيقاتي عليّ إلى يومي هذا، سُحقت شخصيتي مع كل نبرة صوت أسمعها في هذا السياق، مارسوا التعنيف اللفظي بحقي، ومارست تعنيف الحياة بحق جسدي كلما حاولت الهرب بروحي من هذه الحياة.

لمَ يعتقدون أن الحياة هي الجسد فقط؟! روحي في جوع منذ احتجاب الطعام عنها، ذلك الجوع الذي لا يشبعه طعام المشافي الباهت، حتى في يومي الأول هنا بمشفى الأمراض النفسية اهتموا بالجسد فقط، صرت أشبه كل المعنفات في بيوتهن، لكن من دون أن تكون لي عائلة تمارس هذا الأمر عليّ.

فاوضتها بأني سآكل مقابل جلب كيس حاجياتي لي، قبلتْ، تناولتُ طعامهم فناولتني ما طلبت، وسدت ذلك الكيس منتصف صدري، مارست بهذا الأمر عناق من تبقى من أسرتنا على قيد الحياة، تنبأت «كريمة» بحالتي فدست بعض البسكويت بين ملابسي، أمضيت ليلتي الأولى كلها في تقبيل تلك القطع وتناولها، كان ذلك أول طعام أتناوله وبه روح، تلذذت به كأنه صفحات الجرائد التي نتسابق على فرشها أرضا، تأتي أمي بـ«صحن» يملأ بخاره أرجاء منزلنا شغفا لتناوله، نتشاجر قبلها على من يجلس بجانب أبي، فأقربنا منه هو المحظوظ بما يضعه أمامه والدي من طعام، حتما إن لقمة الطعام تلك الممزوجة برائحة أصابعه هي الأشهى بكل هذا العالم.

لم يشبع والدي قبلنا بأي من تلك الوجبات على الإطلاق، كان ينفض يده مبكرا في كل مرة، ينتظرنا أن نشبع قبل أن يتناول ما تبقى في ذلك «الماعون»، كما أمي أيضا، تلك التي لا تقرب الموائد دون أن يكون أبي جالسا بها.

«لم أحسب أيام سفره
مثل غيابه يحسب بأقل من ذلك
بعدد مرات احتياجي للشراب
أقبض على الكأس البلاستيكي المملوء بالماء
هذا عطشي الخامس عشر دون أن أراه
أشرب نصف الكأس، أترك النصف الآخر شوقا له
أو أنني أخشى أن أعتاد الارتواء بعيدا عن عينيه
وإلا كيف يصبح حبا دون عطش للقاء؟!
‘‘‘
‘‘
‘
فيا من دنا..

لروحي، غذاء وماء، ينصبُ الشوق كمينَ مجاعتي له، قد تلويت جوعا قبله في تلك الايام التي خلت، انكمش عالمي لتصبح حدوده ذلك السرير، ثلاث ليالٍ مضت وأنا أنتظر أن يأتوا صباحا للكشف علي، ملكني رعب النزول عنه لم تنل أرض المشفى ثقتي للسير عليها بعده.

وعندما أشرقت شمس اليوم الرابع كان قد أحاط بسريري مجموعة من الأطباء، يمسك كل منهم بمجموعة أوراق للتدوين، لم يكن هذا كشفا طبيا لحالتي بل كان أقرب إلى المحاكمة، يرونني هم بنصف عقل

أو أقل من ذلك، في حين رأيت نفسي متهما ومحاميا، قص كبيرهم شريط المداولة:

- أتعرفين أين أنت؟
- طوال حياتي عرفت أين أنا وأين يجب أن أكون، لكن السؤال الأجدر بالطرح لا يجب أن يوجه لي أنا، السؤال هو: هل يعرف الوطن أنني فوق أرضه وتحت سمائه؟

صمتوا قليلا دون أن يدون أي منهم شيئا.

عاد الطبيب ذاته إلى الحديث:

- هذا المكان الذي يحتويك هو الوطن، لو لم يكن يعرف أين أنت لما كنا هنا، ولو لم يكن يهتم بك لما أتيتِ إلى هنا أيضا.

يضيف:

- لكنك من حاول الانتحار مرتين، لم تكن يد الوطن هي التي قطعت أوردتك!
- حتى بهذه لم تحترموا رغبتي ولو لمرة واحدة فقط.
- لماذا رغبتِ في الموت مرتين؟
- لماذا يرغب من مثلي في الحياة أصلا.
- هل تعرفين أن الانتحار محرم شرعا؟
- وهل تعرف أنت أن الفقر كفر؟
- على حد علمي لم يمت أحد من الجوع هنا.

- أمي ماتت بسبب عدم علاجها، أبي مات بصاعقة وهو يحاول أن لا يموت من الجوع، أخي كذلك استبدلوا سبب موته بآخر.

عندما كان جميع الأطباء يحدقون به بعد انتهائي من الحديث، قال:

- هذه بداية سيئة جدًّا.

تحدَّث معهم باللغة الإنجليزية، لم يكن بهذا الفعل منصفًا معي، استدرك أكثرهم بعدًا عني موجهًا الحديث لي:

- ربما كانت بداية الحديث معك غير مناسبة، توصل الطب إلى مراحل متقدمة جدا في مختلف المجالات، لكنه في العلاج النفسي يعتمد بشكل رئيسي على علاج المريض لنفسه، نحن هنا عوامل مساعدة لا أكثر.

قبل أن يضيف:

- بعيدا عن الجانب الشرعي بحرمة الانتحار أو القانوني بمعاقبة المقدم على من نجا من هذا الفعل، الانتحار هو الاستسلام الجبان، لا أظن أن أحدا يرغب في مثل هذا الوصف.

أحاول أن أتحدث فيقاطعني بلباقة لم أعتد عليها هنا:

- عذرا، لا أعتقد أن هذا مكان مناسب لمناقشة قضية وإن كانت محقة كقضيتك، نحن نريد الاطمئنان على أن نهيئك لمواصلة الحياة في الخارج من غير العودة إلى تكرار ما فعلته.

أقول له:

- حتما إن القضية التي يدافع عنها مجنون هي خاسرة..

- نحن هنا لنثبت لك ولكل الناس أنك لست كذلك، إن أعدتِ تكرار هذا الوصف على نفسك فسأعتبره استسلاما جبانا مشمئزا أكثر من فعل الانتحار.

ابتسم كل الحاضرين لابتسامتي له، قال لي أيضا:

- الآن، دعينا نبدأ من جديد.

أخذوا يسألونني تلك الأسئلة التقليدية، أجبتهم عنها، وعندما رحلوا من حولي بقي هو في مكانه، اقترب من كان قبل قليل أكثرهم بعدا:

- سنقوم الآن بعقد اجتماع في المكتب لمناقشة القسم المناسب لك.

أحاول أن أتحدث فيقاطعني:

- لا تقلقي، سأحرص على أن تقيمي في المكان الأفضل هنا، سيكون لك كامل الخصوصية.

غابوا لساعة أو أكثر، مر غيابهم سريعا بانشغالي في إعادة شريط وجهه وحديثه في ذاكرتي، خنت حزني بابتسامتي بوجهه وابتسامتي في تذكره، كان ثاني اثنين لم يشعراني بدرجتي السفلى فوق هذا التراب.

قدمت ممرضتان غير اللتين لازمتاني في الأيام الثلاث الماضية، أخذتا تفحصان ضغط قلبي، لو لم يكونا في ذاكرتي لما وجدوا نبضا.

أصبحت هشة أكثر من قبل، صرت أتعبط بكل ابتسامة تلقى في سبيلي، صار لي خيال أوسع من كل دنياي، وصار لي قلب أيضا هنا، وغرفة شبه مزدوجة قالوا إنها مؤقتة لحين ترتيب الغرفة الخاصة لي، تبدل العالم كله

بهذا الانتقال، أشعر بدفء نظرات كل من أقابله، شاهدته أيضا يطوف حول الغرف في طريقي إلى مكاني المؤقت.

لم أبالِ بتذمر من شاركتها المكان، وقفت أضع شنطتي في الدولاب قبل أن يفتح ذاك الطبيب الباب، برر للتي كان اسمها «فاطمة» وفادتي إليها، قال لنا إننا أكثر المريضات اللاتي يثق بقدراتهن العقلية لذا جمعنا هنا.

شجعها ذلك الحديث على تقبلي ولو مؤقتا، أعدت لي بعد انصرافه كوب قهوة، تبادلنا حديثا لا يخلو من الشجن، تفأجات حقا بأنها تكبرني بنحو عشرين عاما، لم أعرف من أين كانت تلك السيدة تستمد هذه النضارة في وجهها.

معها، كنت أستمع للمرة الاولى لقصة غير قصتي، عرفت أنها سيدة مجتمع ذات شأن، لكنها تأتي إلى هنا من حين إلى آخر، لم تترك لي فرصة سؤالها عن السبب، أخذت زمام الحديث سريعا، عن حالة الاكتئاب التي أصابتها مذ أن تزوج آخر ابنائها، ترفض عزتها أن تبوح لأبنائها بأن الملف الذي فتح لها خلسة في الطب النفسي يقدم لها هذه الإقامة كلما عاد لها هذا المرض.

تكذب عليهم أنها مسافرة إلى منزلهم في لبنان.

أكتأبت تلك السيدة من مساحات منزلها الشاسعة، قبلها كان زوجها قد أودع السجن لـ15 عاما بعد أن أدين في قضية سياسية أمنية شهيرة.

رمت كل أوراقها فجأة تجاهي:

- سيخرج بعد 9 سنوات، لن نكمل بقية عمرنا هنا بالتأكيد.
- لماذا؟
- البقاء في مكان ظلمك يعني أن لا يشفى جرحك للأبد، ستعيش في انكسار مستمر، أعلم بأن البعض قد يعتبر هذا الأمر ضعفا، لكنني أراه حياة جديدة.

تضيف:

- أسوأ تهمة للإنسان في حياته هي تلك المتعلقة بدينه ومذهبه، فقدت قريبا لي في تفجير إرهابي استهدف أحد المساجد، وفقدت زوجي لأن مذهبه أصبح تهمة كما المذهب الآخر تماما.

تكمل:

- تسوء الاوطان كلما كان أمسها أفضل من يومها، ويومها أفضل من غدها، أصبح حلمنا هو عودة هذه البلاد إلى الماضي وليس الذهاب بها إلى مستقبل تزيد فيه كل طبقيات المعيشة والمذهبية فوق استطاعة عيشنا وتعايشنا معه.

أقول لها:

- أنا من خارج نطاق تصنيفات الطبقية تلك.

تعقد حاجبيها استغرابا:

- لماذا؟

أدير لها أسطوانة حياتي، أهون بها شيئا من مصيبتها، أقدم خلاصتها بأننا لا يسمح لنا بالحياة أو الموت، أو أننا المنسيون هنا من خيرات

الأرض والسماء، عن تناقض ابتساماتهم بالمطر واستنفارنا من الغرق منه.

تشرد عني كأنها تحاول استذكار ذلك المشهد الذي وصفته لها.

- أظن بأنني أعرف تلك التفاصيل جيدا لكن لا تحضرني مناسبتها الآن، لربما كنت شاهدتها ذات مرة أو أنني قرأتها في كتاب ما! سأخبرك عندما أستذكرها.

قضيت ليلتين معها، استمتعت خلالهما بقهوتها جاهزة التحضير وطريقة شرحها للأشياء التي أجهلها، شاهدت أيضا تلألؤ عينيها عندما عرضت لي صور عائلتها، أسست أحاديثنا ركائز صداقتي الأولى، لا أذكر أنني حظيت بمثل هذه العلاقة منذ أن فارقت صفوف المدرسة قبل طفولة من هذا الضياع الكبير..

أو أنها قبل عمر في شتات ذلك الضياع الصغير، عندما تأتي تلك المعلمة إلى صفنا لتنادي أسماء الطالبات اللاتي لم يدفعن فرق الرسوم المدرسية، لم أحظَ بأي حصة كاملة إلا الأولى من يوم الأربعاء، عندما كانت معلمة العلوم ترفض خروجي وبقية زميلاتي المنادى على أسمائهن من الفصل إلا بعد انتهاء شرحها للدرس.

يعزلوننا في فصل آخر، لا دروس نتلقاها سوى توبيخ الإدارة لعدم سداد الرسوم، لم تكن مدارس مطلقا، بل كانت «دكاكين» تبيع الشهادات وفق التزامك بالأقساط.

نرسب لفقر أهلنا.. وينتقلون للمرحلة التالية ليسر أهلهم.

«وفي اختبار الشوق.. لم ينجح أحد
علقت نتائجنا فوق جدار مفاجأة اللقاء
قدم إلي حاملا كيس هدية:
- ابتعتها لك في يومي الأول بباريس.
- أولم أحظَ بذاكرتك في أيامك التالية؟
- بل أردت منذ البداية أن يشاركني شيء منك في الغربة.
«لكن في هذا الوطن لا شراكة لي بك.. ».

‘‘‘

‘‘

‘

فيا من دنا..

ليقلع مني شوك غربة.. ويزهر وطن، لم أقل له جملتي الأخيرة، تركتها بين تنصيصين حول شفتي وقلبي، أغبط أولئك الذين تصالحوا مع كل خساراتهم فما عادوا يغصون بالبوح بها، أو أولئك في المقلب الآخر منهم، ممن تواصل ألسنتهم التلذذ بحديث الحب، أضع حمل كل ما فيّ تحت ساتر صمتي، كأنني ليل بين مشرقين، حتى في ضيافتي عند «فاطمة» تلك التي نجحت في استنطاقي بما يجاري حديثها عن حياتها الخاصة، وأنا التي استعمت لها كثيرا وشردت بها أكثر.

زارتني شقيقاتي الثلاث لأول مرة، صادفت زيارتهن يوم نقلي المكان الخاص بي، جلست كريمة بجانبي على السرير، فردت شعري بيدها

وراحت تعيد تسريحه، اهتمت حمدة بترتيب أغراضي في الغرفة، كنت حينها أركز نظري على وجه سعدة المتورم.

طلبت منهن أن يدعين فاطمة إلى أن تشاركنا الطعام الذي جلبنه معهن، هي الأخرى لاحظتها فيما بعد تركز على أورام ذلك الوجه.

أمسكت فاطمة بزمام الحديث، مهدت الطريق أولا عندما تكلمت معهن عن ثوابت الحقوق النسوية وأن العنف اللفظي أو الجسدي ما هو إلا هدم لكل مقومات الحياة الزوجية الطبيعية.

ضحكت..

رمقنني جميعهن بنظرة اشمئزاز، أكملت بقية ضحكتي بداخلي وأنا أتذكر كل دعوات أمي لنا بالزواج وما سمعته فاطمة عن أن العنف هو طريق الانفصال.

كأن حديث الحقوق النسوية ماهو إلا ترف في حياتنا، فأن تكون «بدون» فهذا يعني أن السكن والغذاء يأتيان أولا وقبل كل شيء، فما تورم وجهها سوى ضريبة تدفعها كي يكون لها سقف يصد عنها حرارة الشمس أو حيطان تحميها من العراء، تعنيفها هو دفعة متأخرة لفتاة «بدون»، ظفرت بفرصة زواج بين مئات أصبحن عانسات، أو أنها عربون مقدم لأمومة منتظرة.

مرت كل هذه السنين وما فهم البدون أن الحل طويل الأمد الذي انتهجته هذه الحكومات المتعاقبة تمثل بالعمل على انقراضهم من فوق هذه الأرض، ورغم كل هذه المقاومة الشرسة لمسعى جدارة الحياة عبر

إيجاد المنافذ الطبيبعة لنيل القيم الإنسانية الأصيلة إلا أن الغلبة دائما لصاحب النفس الأطول في لعبة كسر العظم هذه.

فما أقبح أن تكون اللعبة واللاعب والمتفرج بالوقت ذاته! وحتى إن لم ينقطع نفسك الآن، فأنت لا تملك سوى روحك رهانا للجولة المقبلة بنظرهم والمجهول بنظرك، لمصيرك أنت.

رغم هذا واصلن الاستماع لها، ورغم هذا أيضا واصلت الضحك بداخلي.

لا أعرف حقا لماذا أعود إلى تلك التصرفات اللامنطقة كلما كنت معهن، هل وجودهن يشعرني بأمان إخراج ذلك الطفل اللامبالي بداخلي؟ أم أن غيابهن يجعلني أكثر حذرا في كل شيء؟

يشبه أمانهن حضوره.. والمطر، حتى وإن لم يأتِ الآن فقد أخبرني بسؤاله عني، هل انتفض؟ هل أشهر سيف نجدتي؟ هل سيأتي، تركت كل هذه الأسئلة له ورحت أسألهن:

- هل علم بوجودي هنا؟
- أعلمناه بذلك، وأصر أنه سيأتي بأقرب فرصة ممكنة.

تقول «كريمة» ذلك، تجيب بهذا نصف إجابة عن كل الأسئلة التي تركتها له، قد آمنت مسبقا بأن شيئا بي سيأتي به وإن تأخر كل هذا الوقت، لكني مرتبكة لقلة عتادي للقائه، كأن كل أناقتي تمثلت بشعري وشعوري له، فطلبت من «حمدة» أن تعيد تسريح الأول، أما الثاني فأنا كفيلة بترتيبه من جديد.

لكنه لم يأتِ، عوضا عن حضوره الموعود كنَّ هن من تسللن خارج

عيني مجددا، قبلنني مودعات، زاد فراقهن هذا من ارتباكي، أأفرح لانتظاره أم أحزن لمغادرتهن؟ خرجت معهن «فاطمة» أيضا.

طلبوا مني الثبات في وحشة غروبهم وفعل تحريك يدي وبقايا طعامهن الذي جلبوه إليّ على المنضدة.

أصبح الفراق وبائي المستمر، يحظر على خيالي التجول خارج التفكير بمن غاردني، كأنني أسيرة بعدهم، أذكر قبل ثلاث سنوات من الآن أصبح كل هذا العالم أسير ما يجهله، عندما اجتاح العالم وباء فيروس «كوفيد19» أصاب الناس شغف الحياة، تمنوا فقط عودة ذلك «الروتين» الممل لهم خارج أسوار المنزل.

أظهرت «كورونا» الخصائص الكامنة لدى الأشخاص وإن حاولوا تجميلها قبل ذلك.

جمعهم الفيروس المميت وفرَّقتهم بغضاء العنصرية، حتى عندما قسم الناس في الكويت إلى صنفين: مواطن ووافد، بقينا نحن على هامش صفحة الوطن: بدون!

اقتسم حينها جارنا صاحب سيارة الأجرة أكياس الطعام معنا، ولم تفلح محاولات «كريمة» معه وهي تتناول الأكياس منه: «عمي احنا بخير ونعمة»، فأصرَّ على أن نكون شركاء عائلته في كل شيء.

عندما انجلت الجائحة، كانت أول مهمة للجنة المشتركة في التعديات القدوم إلى منزل جارنا ذاك بعدما اشتكى عليه صاحب المنزل لعدم دفع الإيجار طوال الأشهر السابقة.

وحينما اختلست النظر وهم ينقلون حاجياتهم بعد طردهم خارج المنزل بالقوة الجبرية، تولدت لدي قناعة جديدة هي أن الوطن هو العدد الذي لا يقبل القسمة إلا على نفسه، أو أنه في رواية ابن السلطة: خريطة وعلم وعملة، ورسوم سنوية تفرضها الأمم المتحدة على الدول المتخمة بالمال من أجل صرف رواتب موظفيها، وتوزيع ما تبقى منها على الفقراء من شعوب المعمورة.

لا أعرف كيف يصبح اسمه وطنا هذا الذي لا تستطيع أن توفر به مسكنا لأسرتك؟ ولا كيف سيمر على العم «أبوخالد» قراءة خبر تبرع البلاد بمئات الملايين لبناء قرى سكنية في إحدى الدول الفقيرة، وهو يعيش شتاتا بين إحداثيات 17 ألف كيلو متر مربع؟!

بذلك فقط، هم يصنعون بفقره والضياع الذي به إعادة تعبئته وأسرته في صناديق بيع للدول الأخرى وفق ما يطلقون عليه «قانون حل قضية البدون»، كأنه وكأننا جزء من خطة تنويع مصادر صادرات الوطن.

سيان عندهم كيف يكون فناؤنا، هم معنيون برحيلنا أكثر من طريقته، يطغى الجانب البشع في تبرير كل الوسائل نحو غايتهم العنصرية الفجة، يرون في تغريبه بوطنه قفزة مهمة نحو تحويل آدميته إلى سلعة، ستكر بعد العم «أبوخالد» حبيباتنا لخارج هذه الأرض.. أو كما قالوا لنا: الوطن!!

تذكرت مأساة هذا الرجل عندما سألتُ حمدة عن صنعهم بمنزلنا بعد زواج «سعدة»، قالت لي إنهم أعادوه إلى صاحبته.

- وماذا عن امتعتنا هناك؟

- حفظتها بصناديق داخل منزلي.

يا لهشاشة هذه البيوت! كيف لها أن تنكمش فجأة إلى صناديق؟! ويا لهذا نصف المنزل الذي رحلنا عنه من دون أن أكتشفه! فرغم كل استواء الأرض به إلا أن عمق من سكنوه قبلنا كان أكبر من كل قدرات خيالي على نبشهم.

لم تأتِ صاحبته إلا قليلا للنصف الآخر منه، كما أنها لم تطرق بابنا إلا نادرا في حياة والدتي للاطمئنان عليها، تلك التي لم تسألنا عن إيجاره قط، بل إنها في كل مرة كانت تطلب من أمي الدعاء وتجديد عهدها بحفظ النصف الآخر من أي مكروه، حتى إن لجنة التعديات قد كبحت يدها عنا رغم تشابه حالة إيجارنا مع «أبوخالد».

لم تكن من ذوي النفوذ، مثلهم لا يسكنون مناطقنا أبدا، ربما كانت بركانًا تخشى الدولة ومسؤولوها انفجاره في أي لحظة، لذا توارى عن مخالفتها، كل الأشياء التي عرفناها عنها كانت كنيتها بـ«أم بشار» فقط.

في الكويت، كل هذه قوانين لا مسطرة لها، هي تماما كأسنان المشط المتعرجة، تنكمش كلما اقتربت من رأس أحد المتنفذين، لكنها تصبح حادة جدا فوق رؤوس البسطاء، تقول «فاطمة» إنها تأتي إلى هنا بمحض إرادتها، تعتبر الأمر كسرا لرتابة الحياة أكثر منه لتلقي العلاج، وحينما سألتها عن إمكانية فعلي لذلك؛ أي الخروج والدخول متى ما أشاء، صمتت قليلا قبل أن تجيب بأن الذي مضى على أوراق إدخالي إلى هنا هو الوحيد الذي يُسمَح لي بالخروج معه.

لا اعرف من كان وليا لجنوني من بين شقيقاتي، لكني أعرف أن بالأمر إخلالا بقواعد العدل، عندما يصبح كل علاجي لنفسي وعلاجهم لي لا قيمة له من غير موافقة الشخص الذي أدخلني إلى هنا على خروجي منه.

يا ترى كم عدد الأشخاص الذين ظلموا هنا؟ كم سويًّا فقد عقله لطول مدة بقائه بين جنبات مشفى الأمراض العقلية؟ وكم شخصا انتكست حالته بعد أن اكتشف حقيقة عدم رغبة أسرته في عودته إليها؟

كان هذا المكان سجنا أسريا أقرب منه إلى مصحة علاجية، أيقنت بهذا عندما وجدتني بعد لحظات من مغادرة شقيقاتي لي، أستغل نافذة هذه الغرفة المطلة على البوابة الرئيسية، أزحت ستارة شباك الوداع، لوحت لهن من خلف تلك القضبان، فعتلها هذه المرة، وأنا التي اعتدت أن يكون كل وداع أمارسه للموت!

أولا يعلم الراحلون عنا أن التلويح يولد قساوة القلب؟!!

ظن

«نحن نصنع الاقدار.. ونتعلل بالصدف!
حاولت أن أحصي عدد المرات معه التي لم أكن ضعيفة
كان حاصلها صفرا!
أعلل لنفسي أنه القدر.. ويعللني هو كلما أتى بكامل قوته:
- أحب أنتشالك بيديّ
وهو الذي اعتاد فعل ذلك لم يمل منها ولو مرة
- أخشى أن يصيبك ضجر اعتيادي».

،،،

،،

،

فينا من دنا..

لروحي صلاة وأغنية، ولقلبي نصف أرجوحة، أتمايل فوقها علوا وللأسفل دون أن يكون لي بهذه السماء محط قدم، وأنا التي سئمت من لملمة نفسي طوال هذه الأيام البائسة، حتى عندما ألصقوا ذات مرة ورقة تقويم على الجدران لم تختلف حياتي وإن اختلفت التواريخ والأيام الواقعة فيها.

وجدته مقيدا، ذاك الذي زارني بعد ليالي من لهفتي لانتظاره، أظن أنهم لم يسمحوا له بالدخول لوحده، أتى برفقة عدد من الأطباء صباح اليوم

الثالث من بعد زيارة شقيقاتي لي، مهَّد لقدومه بباقة أزهار دوَّن على بطاقتها كلمتين عموديتين فقط:

«سلامتج..

طارق»..

تنهدت بين كل حرف من اسمه والآخر.

أشغلتني تلك البطاقة عن الاهتمام بنفسي، كنت ما أزال ممسكة بها عندما دخلوا إلي، كان بهذا الأمر تجاوز لخجل ما عجزت أن أبوح به له في حضورهم، أو ربما حتى لو كان بالأمر خلوة لنا، لم يكن وحده الذي انتبه، ذاك الطبيب الذي عرفت اسمه لاحقا (عماد) راح يكسر حواجز كلماتي البسيطة التي رددت بها على تحيته وأسئلتهم.. باقترابه من باقة الازهار:

- لا يبدو أننا الوحيدون المهتمون بك.

حرك رأسه خجلا بينما رحت أنا أخبئ البطاقة التي بحوزتي بين أغطية السرير، لو أنهم كانوا بتركيزين لانتبهوا لأفعالنا الطردية تلك.

- كيف هو منامك في الأيام الماضية؟

يقولها أحد الموجودين..

- جيد مقارنة بالسابق.. لكني..

لم يكن بالأمر شي من البجاحة بأن اكمل الذي أردت قوله بحضورهم، أنقذني «عماد» مرة أخرى من الوقوع في شرك حديثي:

- نعلم كل شيء، لا ضرورة لأن تكملي.

يضيف:

- جرعات الأدوية التي تأخذينها تساعدك على النوم، لكنها ليست مسببا رئيسيا لتلك الحوادث التي تحدث لك.

ثم يسألني:

- هل عانيتِ لفترة ما في طفولتك من التبول اللاإرداي؟

أحرك رأسي له بالنفي.

- حسنا، هذه أمور عرضية. مرجح جدا أن تتلاشى مع الوقت، لن نستعجل بعلاجها.

راحوا بعدها يتنقاشون بالإنجليزية، وجدت أن «طارق» شاركهم الحديث بشكل ملفت، عرفت من ابتسامة «عماد» التي ينظر لي بها في ذلك الحديث بأن هناك الكثير من الإيجابية في نقاشهم ذاك.

- ليس في العرف الطبي أن يشترك طبيب من خارج القسم في علاج الأشخاص الموجودين هنا. لذا يجب أن نشكرهم على ذلك.

أخيرا، كان لي حديث مباشر معه، ما زال رقيقا في مخاطبتي، يوجهني كأنني طفلته، أو ربما أنه «لعبتي» التي أعادوها إلي وحان وقت اظهار امتناني لهم:

- شكرا على كل شيء.. شكرا على هذا الشيء.

يرحلون ويبقى:

- ها قد حققت لك رغبتك في التغيير.

لم يبتسم لمزاحي معه، بدأ متألما أكثر مما كان عليه في حضورهم:

- لم أرغب في أن نصل إلى هذا الحد.
- أولم تقل إن الانتكاسات هي ردة فعل أولى على مراحل التحسن اللاحقة؟
- قد ظننت أننا تجاوزناها مسبقا، مهم جدا أن لا نعود أكثر من الذي نحن به، كل خطوة إلى الوراء يسقط معها شيء من العمر.

لا أعرف لماذا كان يتحدث بصيغة الجمع، أو كيف سمح بحديثه هذا بأن يتمازج عمرانا معا.

- عجيب أن يبقى شيء من عمري وأنا كل خطواتي كانت إلى الخلف!

أقولها له، أبحث عن جدل أطيل به فترة بقائه إلى جانبي.

- دعينا الآن نقسم الأمر إلى مرحلتين، الأولى تبدأ من الأمس، نغلق على كل ما حملته إلى الأبد، أما الثانية فهي من هذه اللحظة، كأنها ولادة متأخرة في الحياة.

يصمت قليلا ثم يضيف:

- أتعلمين كم مرة فكرنا لو أننا كنا في جزء متقدم من الوعي والإرادة فيما مضى، لكنا قد حصدنا تغيرا كبيرا في كل شيء؟ هاهي الفرصة تأتي لك لفعل هذا الأمر.
- وما هي حسابات الربح والخسارة المنتظرة لي إن ما فعلت هذا؟

- لربما تكون هذه أكبر مغامرة في حياتك، أو أنها هي أقرب إلى ما يعرف بلعبة «الروليت الروسي»، تلك المبنية على قاعدة واحدة فقط، إما ربح كل شيء أو الموت.

لو أنه أكتفى بهذا فقط لربما كان الأمر شدني نحو مكاسبها، لكنه أكمل حديثه:

- هذه هي الحسابات، أما الجائزة فهي أن تكسبي نفسك من جديد.

لو أنني كنت أرتدي ثيابا غير هذه، ووجهي ليس في آخر محطات التعب، لو أننا كنا في مكان آخر غير غرفتي بمشفى الأمراض النفسية، لو أنه لا يعرف بمرض الثنائية القطبية الذي بي، لو أن أمي لم تحذرني سابقا من الحب، لقلت له: لا ربح أعظم منك.

أجمع قواي لمواجهته، أهرب من تكرار كلمة «لو»، أدير زوايا الحديث ناحيته وأقول له:

- وماذا ستربح أنت جراء هذا كله؟

كان ذلك آخر دروعي في مواجهته، أصبح صدري عاريا أمامه، فما الحب سوى أن تكون أعزل مع محبوبك، قلتها له بعد أن مللت من الهرب منه إليه، وبعد كل ليالي الضعف تلك التي عجزت حتى أن اقول لنفسي فيها إني أحبه.

من أراد أن يكون منقذا لا حبيبا، ركز لسانه رمحا بقلبي وراح يجيب:

- أنا خارج هذه الدائرة، ثمة معايير مهنية وأخلاقية أقسمت عليها تجعلني حكما مقيما في نهاية الأمر، حتما سنحتفل معا بانتصارك، وحتما أنني لن أكون كذلك لو فشلنا.

يا شريكا فقط في خساراتي، أولم تختنق من كل هذه الحرائق التي أشعلتها في داخلي؟! تنطفئ روحي منك وسعيرها لم ينطفئ، تصنع لي ملجأ من كل هذا الجنون الذي حولي، وما علمتَ أنك ربّ الدمار الذي عصف بي، تعدني بأنك لن تنقطع عن زيارتي وتزيد بهذا أيضا من انسلاخي عنك.. وعني.

أعلن عن عصيانك، طالما أن الاحتفاء سيفرقنا فتعال ننهزم سوية اختناقا بحبسي للهواء في صدري، أسعل بعد ثوان في المرة الأولى، أعيد تكرارها ثانية، أسعل أيضا بعد مرور وقت أكثر من سابقه.

أعض على أدويتهم بأسناني وأشرب الماء فارغا، أتحسن بالجانبين: بنظرهم إلى هدوئي وبالوقت الذي أبقى به من دون هواء، وكلما أتى هو أو شقيقاتي لزيارتي أتظاهر بالنوم، جربوا كثيرا أن يحدثوا خرقا في صمتي دون نجاح يذكر، لم يلفت انتباهي شي سوى الهزيمة المأمولة، بل إنه أصبح لي وقت للتفكير في كل لحظات اختناقي تلك التي لم يكتب لي أن أفقد الوعي بأي منها.

كنت اثنتين متناقضتين روحا وجسدا، كلما كتبوا تقريرا عن تحسن الثاني، راحت الأولى تتقدم بالعد العكسي نحو اللحظة المنتظرة.

في كل يوم كانت ذخيرتي للموت تزداد داخل غطاء وسادتي. كنت أدس أقراص الأدوية الواحد تلو الآخر، وما كل محاولات حبس النفس هذه إلا رغبة مني في منحه فرصة للشعور بي، أو أنني كنت أهيئ نفسي للصمت عند إقدامي على فعلها من جديد.

أملك الآن اثنتين من زجاجات المياه، ونحو 60 قرصا أو رصاصة للموت، وعندما أغلقوا إضاءة الممرات إيذانا بوصول الساعة إلى التاسعة مساء، كنت أكسرها جميعا للنصف، أصبحت بحجم أكبر وجبة غذائية سأتناولها في حياتي، وضعتها في حجري مخبئة إياها تحت الغطاء، انتظرت فقط أن تأتي تلك الممرضة في تفقدها المسائي الأخير لتسألني كما اعتادت:

- هل كل شيء على ما يرام آنستي؟
- تمني لي ليلة سعيدة.

تفعل ذلك مبتسمة، تغلق بعدها الباب بعد أن ظنت أنني سأغلق عيني للنوم.

أقبض على جزء منها بيدي، أدفعها بقوة إلى أقرب مكان ممكن من حنجرتي، أشرب زجاجة كاملة من الماء. أشعر بانزلاقها جميعا إلى داخلي، أغير بالقبضة الثانية من طريقة تناولها، ألتهمها هذه المرة، أسحق مراراتها بفكي، أطحنها تماما كما طحننا هذا الوطن، لا أعلم إن كان بنا مرارة في ريقه، أم أنه لم يرَ في أوقات كفاح والدي لإعالتنا سوى تلذذ بانهيار كل القيم الإنسانية الأصيلة، وهكذا فعل بأحلامنا..

أمـلأ فمـي بكـل الأقـراص المتبقيـة، أطحنهـا قبـل أن تتسـرب هـي والأخريات ماءً وموتًا في معدتي.

وكما في التجربة السابقة لي، وجدت نفسي أصاب بـ«الحازوقة» أولا، أكتم أنفاسي كما تدربت في الأيام الماضية، وعندما تلاشت كان بطني بـدأ برفض تلك الأقراص، يخرج من فمي لعاب مشابه لذلك الـذي يـأتي قبـل الاستفراغ، أجمعه بيـدي وأعيـده مـن حيـث أتـى كـي لا يخـرج شـيء مـن الموت مني، وعندما بدأ الألم يـزداد في بطني، كنـت أشـده بغطـاء السـرير وأواصـل كـتم صـوتي والأنفـاس، لكـن مـع أول اخـتراق لحـاجز الصـمت كنت أضرب بقوة على صدري بقبضة يدي وراح صوتي يعلو تباعا بكلمـة واحدة فقط: يمااا.

آخر ما أذكره هو هرولـة الطـاقم الطبي نحـوي، قـاومتهم، صـرخت في وجههم وأنا في حالة ضياع بين الألم والأمل، أمـل الخـلاص الأبـدي ذاك الذي تلاشى بإنقاذهم لي مجددا.

سئمت التصاق روحي بي! عندما نقلوني على عجالة إلى قسـم العنايـة الفائقـة تأكـدتُ أنهـا ليسـت سـوى تجربـة فاشـلة أخـرى، فلـن أمـوت هـذا المساء، ما زال بإمكانه أن يعيش على فرصة الاحتفاء تلك.

عادني طـوال مكـوثي هنـاك، قـال بغضـب في آخرهـا إنني خيبـت آمالـه كثيرا، بل إن الأسوأ لم يكن خيبته تلـك، لكـن عنـدما قـرر الأطبـاء جميعـا وهو معهـم ضـرورة عـودتي إلـى أجنحـة «الإدخـال» مجـددا لإعـادة تقييـم حالتي.

كانت تلك الأجنحة تقع في المبنى القديم لمستشفى الطب النفسي، عندما لم يكن في الكويت «مجانين» كثر، لكن بعد أن عجزت الطاقة الاستيعابية للمبنى عن ضمهم جميعا شيدوا آخر جديدا.

أصبح فيما بعد هذا المبنى الذي يضم أربعة أجنحة عبارة عن مقر استقبال الحالات قبل فرزها إلى الأقسام المناسبة.

أدخلوني قسما غير الذي كنت فيه عندما أتيت للمرة الاولى، لا يشبه تصميمه أيا من أجنحة المستشفيات الأخرى في البلاد، توجد غرف المرضى به على شكل دائري، وبالمنتصف أماكن الهيئة الطبية.

تجلس نزيلات على الأرض، بينما تمشي أخريات دائريا بحكم تصميم الجناح، كأن جنونهن يطوف بهن حول كعبة البياض تلك بالمنتصف.

لكن الأغرب من ذلك كله كان حديث موظف الاستقبال للممرضات عندما دخلت المبنى، قال بشيء من الفضاضة:

- هذه «بدون». إن لم يأتِ أهلها برسوم الدخول حتى الغد سأخبر المدير بأن يطردها خارج المشفى.

هنا، لا يتحول كل ما فيك إلى شتيمة وحسب، بل يتم إطلاق أحكام مسبقة ونهائية عليك لمجرد اختلافك، لم يترك لنا الوطن حائطا يمنع الأذى عنا، مذ أن سقطت قطرة عرق جبيننا بتسولنا الأول، أصابنا ما أصابنا من كل هذه التجاوزات الجسدية واللفظية.

سكت عن أذيته تلك، وما صمتي هذا سوى إهانة مستمرة لي ولكل أقربائنا من ذوي «المواطنة المحدودة».

فنحن الذين زرعنا الصمت لنحصد الموت البطيء.

سقطت في دوامة من الانتكاسات أفقدتني مقدرة السيطرة على نفسي، فكلما ارتكبت فعلا أعود بعده سريعا لجلد ذاتي انتقادا، لم اعد أعرفني، وأظن أيضا أن كل الذين عرفوني انتابتهم نفس هذه القناعة.

كنت مجهدة من كثرة الاستيقاظ، لم يكن بجعبتي شيء من السلوى سوى العمل بخلاف طلباتهم، أو ربما أنها الحالة الوحيدة التي أستطيع بها أن أملي بها رغباتي على نفسي!

تورمت أوردة يدي من الحقن التي تبث عبر أنابيبها سوائل مهدئة، بعد أن كانوا قد حجبوا عني تناول الأدوية وحتى الطعام الصعب وذلك لتدهور معدتي، سمعتهم يقولون إن جدارها قد ثقب، ستحتاج إلى نحو شهر كي تلتئم من جديد، يواصلون بفعلتهم هذا الاهتمام بكل شيء فيَّ إلا أنا!

يمر الوقت والأيام كما هي، يتناوب الأطباء على زيارتي ولا وصال لروحي بينهم، عَزَّ علي أن يحضر غائبا كل هذه المدة، لم يفعل طوالها أن قدم لي لوحده، يضع بيننا أشخاصا كثرا، ينظر إلي ولا يفعل ذلك! أعلم بأنني خذلته بالقدر الذي بدت فيه كل الأعذار تافهة، كيف لا وخصام القلوب شرك الحب الأكبر.

يتعاظم بي إثم قطيعته، تتضارب مشاعري بين انتظاره أن يأتي وبين عدوانية انتظاره! وبينهما ألملم قبح تصرفاتي إن حضر، يحاكي كل تمردي هذا نجدتهم له، تمادى عصياني لهم إلى حد أن أبصق نحوهم، أكره أن يُفتح باب غرفتي على غيره، وما علمت مدى سوء حالتي إلا عندما سمحوا أخيرا لـ«حمدة» بأن تزورني، جلبت لي بحكم برودة الجو بعض الملابس الشتوية، كأنها لا تعلم بكل ذلك الصقيع الذي اجتاحني تجاههم، وما إن قدمتها لي حتى شممتها على الفور، لا أعير انتباها في الملابس إلا لرائحتها، تاكدت عندما قربتها إلى أنفي أنها قد ابتاعتها من «سوق الجمعة»، بعد أن كانت رائحة يدها من الغسيل ملتصقة على خيوط الملابس.

خجلت «حمدة» من تصرفي هذا، حاولت التبرير بأنها غير مستعملة:

- انظري، لا يوجد بها أي فتق.

ظنت اعتراضي على قِدَمِ ما جاءت به لي، لكنني بالحقيقة كنت لا أحمل ذكرى جيدة من هناك، لذا لم أكن لأرتدي تلك الملابس حتى الآن، منذ المرة الأخيرة التي كان بها «زياد» يجلس في «البسطة» التي يبيعون بها المياه والمشروبات الغازية مع «كريمة» عند إحدى البوابات، أتى رجال البلدية لمصادرة «رزقنا». هرب «زياد» بالأموال منهم خوفا منه أن يأخذوها أيضا، نظر إلى الخلف فوجد «كريمة» تتشبث بالحافظة بينما يحاول أحد العمال الآسيويين المرافقين لموظفي البلدية انتزاعها منها بالقوة.

عاد ابن العاشرة حينها إلى شقيقته، أخطأ في رميته للحجر الأول، لم يوقف الحجر الثاني الذي أصاب كتف هدفه في معركة الشد والجذب مع «كريمة»، فتش «زياد» بالارض، التقط قنينة زجاجية كان قد باعها قبل لحظات لأحدهم، أصابت رميته هذه المرة، شق رأس خصمه، افتك الاثنان أيديهما من حول الحافظة، العامل راح يتفحص جرحه النازف و«كريمة» انسحبت رعبا من هول المشهد.

هرب فتانا مجددا، استحسن الحضور شجاعته فواروه عن الأنظار، تقدمت سيدة للدفاع عن «كريمة». هربت هي الأخرى منهم، لم يكن للزجاجات التي يبيعونها أرجل للجري، استسلمت لرميها في شاحنتهم الصفراء قبل أن يسوقوها للإتلاف.

أقسمت أمي من يومها أن لا يطأ الاثنان ذلك المكان مجددا، تأخذني أنا بين العام والآخر معها إلى هناك، تقيس بي ملابسهم جميعا، تشتري الأقصر والأطول وتقسمها علينا.

- لقد أحببت رائحة يديك في هذه الملابس.

قلت لها ذلك بعد حفلة الشتائم والبصق التي أطلقتها عليها:

- ربما هذه الرائحة ستكون سببا في ارتدائي لها.

وقلت ذلك أيضا.

لم نكن زبائن الأسواق المستعملة فقط، بل كنا بضاعتها أيضا، عندما راح يعرضنا بعض المسؤولين هنا بين الدول الفقيرة.

بازار سوق نخاستهم أقفل عندما تمت صفقة مشبوهة بين الوطن وإحدى الدول الإفريقية الفقيرة لحصول البدون في الكويت على جنسيتها مقابل مبالغ مالية ضخمة موزعة بين هبات واستثمارات.

سال لعاب بعض الدول الأخرى أيضا، أُعدنا إلى بازار المزايدات من جديد، دولة أوروبية وأخرى آسيوية دخلتا على الخط.

أضفت مباركة بعض الفاسدين في مؤسسات الأمم المتحدة الشرعية الدولية على تلك الصفقة، تبجح مسؤول رفيع بإحدى ندواته أن هذا الحل ينال رضا أغلب «البدون»، قبل أن يستدرك خطأ تسميته: «لن يصبح هناك مقيم بصورة غير شرعية بعد الآن».

هو نفسه من كان يدافع عن حقوق الفلسطينيين في المحافل الدولية.

ما أقبح تجار النخاسة عندما يدّعون الشرف!

لم نكن وحدنا سخرية للقدر، بل كان الفلسطينيون مثلنا كذلك، عندما ظنوا لوهلة أن هذا السيف المسلّط على رقابنا ماهو إلا سيف تحرير أرضهم، وما علموا أن قاتلي الأحلام والأطفال سيخلدهم الدهر ملطخين بالكوابيس والدماء.

كانت صفقتنا هذه موازية بالتوقيت نفسه لصفقة «العار» التي روجت لها الحكومة الأمريكية بمباركات عربية متعددة لدحر ما تبقى من النضال الفلسطيني للتحرير.

لم تتم أي منهما، سُجن منسق صفقتنا بقضايا فساد، وسجن الرفض الفلسطيني تحويل صفقة القرن من الورق إلى الأرض.

- كيف «كريمة» و«سعدة»؟

أحاول بسؤالها أن أفيقها من حالة الذهول التي أصابتها من تصرفي؟

- كان مفترضا أن تأتيا معي، لكن «كريمة» أصابها إعياء من الحمل، بينما «سعدة» منعها زوجها من القدوم.

- لا أحد يرغب في أن يكون وحامه في مكان كهذا.

استنزفت هذه الجدران كل لطف فيّ، أصبحت فجة أكثر مما يجب أن تكون عليه أي فتاة، فما نحن إلا أشباه إناث في هذه البلاد، تتدافع ذكورية مجتمع وقوانين دولة أعبائنا نحو المجهول، فمنذ أن أُفرغت شريعة الله من أمومتها للمرأة البدون أصبح الخبز أهم من الأطفال، فنحن اللواتي وجب عليهن أن لا يخترن شيئا من حياتهن، مذ أن بلغنا من الحلم عروسا ونحن نحمل الهمَّ قبل الأجنة، ومن تنجُ من هذا كله ستكون إحدى أربعتنا.

ففي وطن الحرمان، جعلوا من «بدونهم» تجارب لمبدأ المساواة ولكن في الوجع بين الجنسين، تمرر المرأة كل قيودها الأمنية ومؤشرات الجنسية الوهمية إلى أبنائها، في حين تحرم الكويتية من حق تجنيس من خرجوا من رحمها، بل إننا حتى بهذا كنا أقل حظًّا، فكلما قطعوا جزءا من دائرتنا الضيقة راح أولياء الله علينا يكيلون في ميزان حياتنا.

- ليس الأمر كذلك.

لا مبرر تردفه في جملتها هذه، تنفي الحقيقة رغم إيماني الكامل بها، لكني لم أبالِ كثيرا ورحت أمارس جنون تصديقها على ما تبقى من عقلي.

غير أني فرحة بنتائج حضورها أكثر من الفعل ذاته، نما لدي وجه آخر غير الذي أملك، نجحت به بإجادة السير فوق ركامي، بقدرة فائقة على إظهار تناقضات الغضب والرضا بثوان فقط، كذلك بتغاضٍ على ما جاء في حديثها ومعرفة كيف قلب سياقه إلى ما أريد.

أما الأهم بهذا كله، أن لا أحرك ساكنا بمغادرتها، لم يصبح هذا المكان منزلي بعد، لكني سئمت ممارستهم لطقوس الرحيل المملة.

لم يكن الوقت سوى دماري وتشييدي، يفرض علي انتفاخ الرئتين وفراغهما البقاء على قيد الحياة، حين يصبح هذا المشفى سجنا ينبغي عليك أن تقضي به محكومية جنونك غير المعلومة على أمل أن يُفتَح لهذه الحياة باب من جديد، تخرج به لتقضي محكومية أخرى تتمثل بنظرة الناس لك، على أمل منهم بأن تعود إلى هذا المكان من جديد خشية منك.

راودتني في تلك الليلة أفكار تتعلق ببقائي هنا إلى الأبد، حاولت الهرب منها بأن تستسلم قوى ممانعتي لمهدئاتهم في وريدي، أرخي عينيَّ للنوم، ويا ليتني لم أفعل ذلك، بعد أن زارني طيف بأنني أجلس في نفس هذه الغرفة، أتربع في منتصف السرير، أشد شعري فتمتلئ كفي بشعر

أبيض، أقبض عليه وأشد شعري بكفي الثاني فتتملئ هي الأخرى بالشعر الأبيض.

أمد قدميَّ أمامي فأرى ترهل جلدهما، أنهض مذعورة نحو الزجاج الصغير في منتصف الباب، ينعكس لي وجهي، أغمض عيني بعد أن رأيت فعل السنين به، لربما تجاوزت السبعين عاما بهذا الوجه.

أعود إلى السرير، في تلك الخطوات القليلة يترسب ماء من بين قدمي، أتلمس مصدره فأجد أن الحافظة التي ألبسوها لي قد أزيحت من مكانها، أدفع بكل قوتي الماء في داخلي لأتبوله.

أستفيق من نومي لأجد نفسي قد فعلتها حقًّا في سريري.

ها أنا اعود إلى بداياتي مرة أخرى، لربما سرَّني أن أعرف أين أقف من بين كل الذي أنا به، أتذكر ما قاله «طارق» عن أعراض الشفاء المتمثلة بالانتكاسات، يقودني هذا إلى توسع في مناطق نفوذي على نفسي، أتحكم بدرجات عدوانيتي معهم، وأزداد رقة كلما كان القادم هو.

بدأت تهل مكافئاتهم تباعا كلما أظهرت للعلن شيئا من استقراري، لا حاجة الآن لأن يبقى الباب مغلقا من الخارج طوال الوقت، قالوا لي لاحقا إنه بإمكاني الخروج إلى بهو الجناح على فترات طويلة من اليوم كما يفعل كل النزلاء الآخرين، عندما أعربت للطبيب الآخر «عماد» عن مخاوفي بالاحتكاك بهم قال لي:

- الجميع هنا تجاوز المراحل الصعبة في طريق علاجه، هم الآن أقرب كثيرا إلى القدرة على مواصلة الحياة في الخارج.

قبل أن يضيف:

- لن يقتصر الأمر على الخروج من هنا وحسب، بإمكانك الذهاب إلى الخارج.
- إلى المنزل؟

يجيب محرجا:

- لا، لم نصل إلى هذا بعد، لدينا في هذا المبنى حديقة متواضعة، سأخبرهم أن يسمحوا لك بالجلوس فيها، صحيح أنها متواضعة جدا والاهتمام بها لا يرقى إلى مسمى حديقة، لكنها ستفي بالغرض من أجل استنشاق هواء أفضل من هواء هذا المكان.

أفهم تماما أن مكافئاتهم هذه ما هي إلا ممارسة الطرق البدائية في علاج الاضطراب النفسي، تلك المعنية بتوسيع دائرة الحرمان بحسب استجابة المريض لهم، كأنهم بذلك يعيدون التجربة البدائية للعلاقة بين الإنسان والحيوان عبر الترويض، بل إنه ليس مجحفا قول ذلك بحق نفسي تلك التي أبدو مذنبة بحقها منذ قبولي الأول للتعاطي مع فرضياتهم بجنوني ونكراني لذاتي، بهذا هم يعيدونني إلى ممارسة لعبة «الحجلة» في طفولتي ولكن باختلاف الأدوات، نرسم مستطيلا مقسما إلى مناطق أفقية متساوية الحجم، أستبدل حجر اللعبة بعقلي، وكلما كانت رميتي متقنة في داخل المستطيل الأبعد زادت فرصتي في إنهاء اللعبة أولا.

لكني بين مستطيلين متقاطعين وجدت نفسي في المنتصف، لا أعرف حقا أيها أريده أكثر، هل الوقوف بكلتا قدمي بداخل أحدها، أم مواصلة اللعبة إلى آخرها بقدم واحدة؟!

لست على عجلة من أمري، لكن قيمة الانبهار تكمن بقلّة أوقات انتظار ظفرنا بالأشياء، كأن الامر تماما يتمثل بالغلاف الخارجي للهدايا، كلما رُكنت طويلا من دون فتحها أصابها البهوت، لذا كنت أرتدي المعطف الذي جلبته لي «كريمة»، وأخرج للمرة الأولى من هذه الغرفة، كنت أقصد الحديقة، لكن المشهد العام لـ«خلية النحل» كما أسميتهم كان يستحق الوقوف قليلا في منتصف القسم الذي كنت به للتمعن به، مختلفون بالأعراق متساوون بالمرض، يجتمعون بحلقات ثلاثية ورباعية بين الزوايا والغرف، لكنهم جميعا اتفقوا على فعل التحديق بي طويلا وأنا واقفة، فلكما أدرت وجهي وجدت نظراتهم تحيط بي، يتساءلن كلًّا في داخلها: يا ترى ماهي قصة زميلتنا الجديدة؟ طال وقوفي هناك بسبب انتظاري الإذن للسماح لي بالخروج إلى الحديقة، وأيضا كبر التساؤل فيهن عن سبب أن أحظى عن سواهن بهذا.

ترافقني ممرضتان إلى الأسفل، أجلس إلى طرف المقعد الخشبي، أرى «طارق» من الزجاج أعلى المبنى واقفا برفقة مجموعة من الأطباء، ينتبه لي، يرفع يديه عفويا، يسير بعكس اتجاه تحركهم، يأتيني وهو الذي لم يغادرني مطلقا، يطلب من الممرضتين الانصراف:

- هذه المرة الاولى التي أراك بها في الحديقة؟

- أتعلم يا طارق أنني أخاف أن يئدونا ليزرعوا وردا! بنظرهم ستصبح الكويت أجمل إن فعلوا هذا.

قلت اسمه من دون مسماه، بدا أنه استحسن قولي..

- حركي يديك كهذا العصفور، حاولي الطيران، ستكونين أبعد عن الأرض.
- سيقولون مجنونًا قد طار! لكن حقًّا كيف لي أن أتمرد على جاذبيتهم هذه وأنا التي ولدت من دون أجنحة؟
- قد يخلق الحب ما لا يخلقه القدر.
- أتطلب مني الطيران وأمي قبل وفاتها تعمدت أن تنشرنا في هذه الأرجاء بغاية إغراء من يحلق في السماء لينتشلنا، حتى إنها في المرتين اللتين كانت حاضرة بهما خطوبة بناتها لم تضع أي شروط خشية رفضهم.

أقلب صفحة الحب في وجه محادثته:

- هل ترى عامل النظافة ذاك؟
- ما به؟
- عندما قدمت إلى هنا أخفى سيجارته في يده، ألك أن تذهب إليه لتطلب منه واحدة؟

يقول باستغراب:

- أستدخنين؟!
- من يعلم، ربما أطير مع دخانها.

يذهب نحوه وهو يقول:

- لا أعرف كم مرة سأخرق بها القرارت معك.

يأتيني بها، يضعها في راحة يدي، يقف بجانبي حاجبا رؤية زجاج المبنى.

- هذه لا تشبه ما كان يدخنه أبي، لقد كان يشرب سجائر بأعقاب بيضاء، في طفولتي كنت أحرص على تنظيف منفضته باستمرار، أجمع بذلك أعقاب السجائر وأصنع دمى مشوهة لألعب بها.

يستغرب وصفي لها بالمشوهة، فأبرر له قولي هذا:

- يقال دائما إن الخيال أجمل من الواقع، لكني عانيت قصورا في مخيلتي، ذاك المتعلق بالجزء الأخير منه، قد يكون السبب في استمرار الضيق الذي كنت، بل ما زلت أعيشه، كنت باستمرار أعجز عن صناعة رأس مناسب للدمى، لم أحظَ بألوان عديدة لتجميلها فأقوم بعد اكتشاف القبح الذي وصلت إليه بفصل رأسها عن بقية الجسد.

يبدو أن حديثي أثار الجانب الطبي عنده:

- هل فكرتِ يوما بالفعل ذاته مع الأشخاص القبيحين؟

- لا.

- لكنكِ لستِ بقبيحة، وقد حاولتِ فعلها مع نفسك!

ليس كل اهتمام إعجابا، وليس كل إعجاب حبا، لكن الشيء المتلألئ في عينيه كان يوحي بخلاف هذا.

نواصل الحديث، بينما جمرة السيجارة تستمر في حرق تبغها.

يقول لي:

- هل ستدخنينها أم ستتركينها هذا؟
- لا، سأكتفي هذه المرة باستنشاق رائتحها وهي تحترق بين أصابعي. سأحتفظ بعقبها فقط.

أحظى ببعض خطوات معه بسيرنا إلى الداخل، لربما هذه المرة الأولى التي كنت بها بظلين! ليس بالضرورة أن يعرفه جميع العاملين هناك، يكفيه ما كان يرتديه للوصول إلى الأماكن الممنوعة عن العامة، ويكفيني أن أكون معه بهذه الخطوات لأرى نفسي بغرور أمام النساء المجتمعات، زاد هذا من فضلوهن تجاهي، ودعني عند باب الغرفة قبل أن أستقبل فور رحيله إحداهن، تدعوني إلى ضيافتها دون أن تترك لي فرصة للاعتذار.

كنت سادستهن، بحرارة رحن يستقبلنني بالترحيب وزجاجات العصير المعلب.

عرفت خلال صحبتهن بأنني كنت استثناء في تنقلاتي بين أقسام المشفى، قلن لي إنه من المفترض أن آتي إلى هنا قبل خروجي، ورغم أنني لم أسر على خطاهن بهذا المكان إلا أن الرغبة في معرفة مصيري كانت طاغية لديهن أكثر مني.

لم أكن بالواقع مهتمة للأمر، إلا أن إصرارهن على البقاء في هذا الحديث زاد من هاجسي تجاهه، رغم كبر سنهن النسبي إلا أنهن لم

يتجاوزن فضول الأطفال بعد، زرعن أيضا شيئا من الشك بداخلي تجاه العاملين هنا، فما هن إلا استمرار لحالة عدم الثقة التي تجتاح البلاد بالخدمات الطبية منذ فترة طويلة، قلن لي إنه يجب علي معرفة كل تفاصيل العلاج والأدوية التي أتناولها وإلا فإنه سيتم القضاء عليّ تماما!

هل أسعد لقولهن هذا وأنا الساعية للموت ثلاثا، أم أن تحويلي إلى جزء عبثي بين أيديهم سيجعلني أنتفض عليهم؟

كنت ضحيتهن، أحدثن جلبة عندما توالت أصواتهن تباعا في نداء الطبيب المناوب، لم يشكلن حالة عصيان إلا أن الامر كان مقلقا للطاقم الطبي كله، يجرفنني نحو ما أردن، صرفوا كلا منا إلى غرفتها، يالجنونهن هذا عندما رحت أسمع صراخهن بي أن لا تصمتي عن حقك. يهدأ الطبيب من روعتي المتزايدة، كان مشهدا مضحكا له ومبكيا لي:

- لنتجاوز هذا الأمر، لن أدون هذه الحادثة في دفتر ملاحظاتك.

أقول له إنني سأرفض أي شيء لا يتم إعلامي به مسبقا.

يستجيب لطلبي، يأتي بسجلي ويشرح الأدوية التي يتم إعطائي إياها بالوريد، يترجم لي أيضا ما هو مكتوب باللغة الأجنبية من ملاحظات الأطباء على تحسن حالتي، أسأله إن كان سيتم نقلي إلى مكان آخر فيجيب:

- بالطبع سيحدث ذلك طالما هناك تطور في الوضع العام، هذا القسم ليس معنيا بمراحل التقدم بالعلاج بقدر عنايته بالحفاظ على عدم تدهور أي شخص موجود به.

أنام وملء قلبي خوف من الانتقال، لم أبلغ عتيا من العمر حتى أخشى التغيير بكل هذا الخوف، كنت أكره وحشة الأماكن والوجوه الجديدة أكثر، كما أن ثمة نقيضا كبيرا بين ما قاله الطبيب بضرورة الانتقال إلى قسم آخر من أجل التحسن، والقاعدة التي تنص على أن الاستقرار مفتاح كل شيء، وأنا التي لم يكن بحوزتي أي مفتاح منذ أن أصبحت كرة جنون يتراكلونها بكل اتجاه والأقفال تحيط بي من كل جانب.

لمَ لا يشعرون بتحسني كما يشعر به «طارق»؟ ولمَ غُيبت عني كل هذه الأمور المتعلقة بالانتقال في حديثنا الطويل بهذا اليوم؟

«أحلق به، في كل مرة كنت أحدثه
أرمي شيئا من هذا الماضي التعيس.
معه، أصبحت أخف من هوائهم
.. كدخان سيجارتنا تلك
جلب لي بعدها علبة ذات عقب أبيض:
- ماذا ستفعلين بـ«قطوفها» هذه المرة؟
- سأصنع دمية تشبهك.
- لكني أريد التحليق معك!
يضيف:
- أخشى أن يؤذوني إذا ما اكتشفوا الدمية.. عندها لن تنبت أرضي وردًا مثلكم».

‘‘‘
‘‘
‘
فيا من دنا..

حتى انتمى لجلدنا، أفرغت غيمة روحه مطرا فوق جسده كشف به عن طين الله الذي خلقَنا به، تساوى معنا بهذا، وبحساباتهم صار مجموعنا أرقاما.. وإنسانا، ما كان باستطاعتي تخبئته، خشيت أن يلوّث عجينه بحدثيهم إن ما سمعهم يقولون عنا «مزورين».

لكنني لم أنجح إلا في تخبئة علبة الدخان التي جلبها لي، دسستها في صدري عندما قدموا لي فجأة ليخبروني بنقلي إلى قسم آخر في المبنى الجديد كما أسموه، قضيت قبلها أياما قليلا منعزلة في غرفتي بناء على طلب «طارق»، أذكر المرة الأولى التي قابلته بها بعد حادثة «العصيان» تلك، كنت أحدثه عنها بحماس كبير وكان هو يقاوم ابتسامته، قبل أن ننفجر كلانا من الضحك.

قال لي:

- أحيانا تكون العزلة علاجا لأرواحنا.
- لكنك طلبت مني أن أختلط بهم؟
- يبدو أنني اخطأت التقدير في ذلك.
- وخبأت عني قرار نقلهم أيضا!
- ثمة قرارات تتخذ على نطاق ضيق من الأشخاص في العمل، لاحظت مؤخرا محاولات عدم جعلي مطلعا على كامل الصورة، صحيح أن أحدا لم يطلب من الابتعاد بشكل مباشر، لكن أحدا أيضا لم يدعني للمشاركة في أيٍّ من هذه القرارات.. حقًّا لم أكن أعلم بهذا قبلك.

سيد الغفران كان يطلب الصفح مني، وهو الذي يملك رصيدا بداخلي يشفع لكل مذنبي الأرض، أو أننا في غفلة من غضبنا لا نكدس أخطاء من نحب، يغفر لهم اشتياق العين في كل مرة، بهذه نحن نؤثر العشق على

أنفسنا، كأن الحب ليس سوى لذة العبودية التي يحسدنا عليها المتحررون.

وحدهم، الفارغين من الهوى، من ترجح كفتهم في لعبة الاختيارات، تكبر أمنياتهم بعقولهم، في حين تصغر أمنياتي في لعبة الانتظار التي مارستني قبل قرارهم بنقلي، فقد تمنيت مسبقا أن أعود إلى مكان إقامتي الأول، حيث المباني الصغيرة المجاورة لقسم «العناية النهارية»، التي يتم وضع الأطفال بها وكبار السن في فترات النهار أو لأيام بحسب ظروف أسرهم.

أخبرني «عماد» قبل ذلك بلحظات بأنهم سيفعلون ذلك اليوم. لكن عندما حانت لحظتها كنت أسأل الممرضات عن «طارق»، قالوا إنه ينتظرني هناك، أنطلت عليَّ حيلتهم، لملمت مخالبي وعلبة الدخان ورحلت معهم إلى ذلك المبنى الضخم، رأيت عشرات الأشخاص الداخلين والخارجين منه، لم يكونوا منقادين كهيئتي.

لم يكن الداخل كما الذي كنت فيه، ممرات واسعة نظيفة وحوائط ملونة وأقسام متفرعة بأثاث جديد، كنت أكثر جرأة من المرة الأولى التي نقلوني بها من مشفى الجهراء إلى مشفى الأمراض النفسية، لم أرخِ هذه المرة رأسي إلى الأسفل، بل أخذت أتمعن في كل شيء بعد أن كشفت لي فترة إقامتي بهذا المكان أهمية معرفة كل التفاصيل.

وُضعَت على الجدران ورقة بسهم تشير إلى «نادي الأصدقاء»، وورقة أخرى في جدار آخر بممر مختلف كان بها إشارة إلى «نادي القراءة»، لم

تكن تبعد نوادي الأنشطة هذه كثيرا عن أماكن إقامة نزلاء هذا المبنى، انحرفنا عن مفرقها إلى اليمين نحو ممر طويل وُضع أعلى منه لافتات إرشادية بأرقام الأجنحة.

كان لافتا أيضا كثرة الأسوار حول النوافذ.

عند منتصف الممر توقفنا قبل أن نهم بالصعود إلى الأعلى نحو الجناح الخامس والثلاثين، كل الأجنحة كانت بقفل ذاتي لكنني عرفت من النافذة الصغيرة على الباب الزر الذي يكبس ليفتحه، وقبل أن يفتح الباب كنت أسمع صراخا من سيدة لم أعرف إذا ما كانت بداخل هذا الجناح أم بمكان آخر.

انتابني رعب ممّا سمعت، ربما لأن شيئا مني كان عاقلا بمكان ملقب بـ«مشفى المجانين»، أحبس الرعب بداخلي فيهبط على قدميَّ عندما فُتح الباب دون أن أملك قدرة على تحريكهما إلى الأمام، تأكدت الآن أن الصوت يأتي من داخل الجناح، تجرُّ يدي إحدى الممرضات المرافقات لي نحو الأمام، لكنني لم أتحرك أيضا، صار وجهي كتلة جليدية دون أن أقوى على تغيير ردة فعل الخوف الذي لم ينزل إلى الأسفل وحسب بل اجتاح كلي، يتصلب الدم بداخلي أيضا، انتبهَتْ التي كانت تسمك بيدي عندما وجدتني أقبض على أصابعي فجأة، حاولت الأخرى دفعي من الخلف، لكنها اكتشفت أنني لم أكن سوى ساق شجرة، بلا جذرٍ عندما سقطت بدفعتها إلى الأرض.

عاد لي التشنج مرة أخرى، فتحت إحداهن فمي بقوة ووضعت الأوراق التي تحملها أعلى لساني، استغلَّ خوفي هذا المنفذ فبدأت بالصراخ، لم أذكر أنني كنت أصرخ في نوبات التصلب التي أتتني سابقا، اجمتعن فوقي وإلى جانبي عندما رحت أنتفض، كنت أعي كل لحظة حينها، حاولت أن أرفع رأسي لأطمئن إلى أن علبة السجائر كانت في مكانها وسط صدري، لم أفلح في ذلك، لذا رحت أنزل بعيني إلى الأسفل فقط لأرى.

حملوا شجرتهم الجديدة في سرير متنقل نحو الداخل، توقفت عن الصراخ، لكن تلك السيدة في الداخل لم تكف عن فعل ذلك.

أعادوا لوريدي قطرات تخديرهم، لم يسقوني بها النوم بل رحت أسقط بكابوس تلو الآخر، ولا قرآن فوق رأسي ألوذ به من تلك الكوابيس المتلاحقة، ليلتي الأولى كانت بألف رعب، كلما هربت من أحدها بإفاقة عيني لوهلة اجتاحني تأثير المخدر الذي وُضع في وريدي لتغط عيني نحو الخوف المتلاحق، أتذكرها جميعا كشريط زمني متتالٍ، كأنني بها عارية أغطي عورتي بيدي، أسير فوق آلاف الوجوه الملقاة على الأرض، وكلما سحقت قدمي أحدها تعلق برجلي بفكيه، أهرب منهم نحو جدار النهاية، أدير ظهري لهم فتصعد كل تلك الوجوه أعلى كتفيَّ وتفتك بي بأنيابها.

مجددا يصبح النوم دائي..

أشعر بهم يتحدثون من فوق رأسي، لكنني خشيت أن أفتح عيني لأرى وجوها أيضا! يحاول أحدهم أن يتحدث معي لإفاقتي، أقول له إنني لا

أريد أن أرى أحدا، يسايرني بهذا ليخبرني بأنه أمر بالتوقف عن إعطائي جرعات التخدير وسيعود لاحقا للاطمئنان علي.

وعندما تأكدت من خلو الغرفة من الوجوه، فتحت بصري بقوة هربا من نوم قد يأتيني على حين غفلة، فتحت بصري فيما بصيرتي كانت مغلقة نحو «طارق» الذي تركني فريسة لخدعتهم بوجوده هنا.

أشاهد محيطي الجديد للمرة الأولى، طلي جدار الغرفة بلون السماء، في أعلى الزاوية المقابلة لسريري كان ثمة تلفاز صغير محاط بحاجز حديدي، طاولتنا بجانبي، ستارة بلون أبيض لم تكن تحجب ضوء النهار، وأنا، أتفحص جسدي أيضا، بياض قطنتين وضعتا في الجزء الخلفي لكفي، أتلمس جسدي بحثا عن علبة السجائر فأجدها قد انسلت لمقربة من نصفي الأسفل، أتناولها لأخبئها داخل غطاء وسادتي.

ما زال شيء من «طارق» موجودًا معي حتى الآن.

على يساري باب لدورة مياه، أنهض إليه، ثمة مرايا مثبتة أعلى صنبور المياه تمنعني من الاقتراب منه لأغتسل، لم أكن أريد أي وجه حتى وجهي، أطفئ زر الإضاءة، لم تحل العتمة في كل أرجاء المكان الضيق، لكني سأتمكن من قضاء حاجتي من دون أن أشاهدني بوضوح.

أنزع القطنتين من على يدي، قطرة دم صغيرة تتحرر، ألعقها، لم يتغير طعم الدم مذ أن كنت أفعل ذلك في طفولتي، أغسل وجهي، أسكب ماء أيضا على المرآة كي لا تنعكس صورة واضحة لي إن أخطأت بالنظر نحوها. أقف بجانبها، بدا أنها لم تكن مثبتة بقوة على الحائط، تحركت

معي عندما جررتها في زاويتها العلوية، أقبض بأصابعي عليها من الداخل وأحاول ثني الزاوية نحو الأمام، لم أشأ أن أكسرها الآن، فلست بحاجة إلا لجزء بسيط فقط إذا ما نويت فعلها مجددا.

يطرق «طارق» الباب، عرفت ذلك حتى قبل أن يتحدث للاستئذان أو يدخل، اعتاد فيما مضى أن يطرقه ثلاثا متقطعة، لكنني لم أجب، يفتح الباب برفق، وعندما شاهدت جزءا من جسده دخل. أغمضت عيني كي لا أرى حتى وجهه.

- كما توقعت تماما، فإنك لا تجيدين التمثيل.

يضيف أيضا:

- لا أحد ينام ويغلق عينيه بهذه القوة.

أرخى جفني، أقول له:

- لست بنائمة، لكنني لا أريد أن أرى أي وجه من الوجوه.

- حتى أنا؟!

ومعه، يرفض قلبي أن أرفض.

لا أدري كيف يأتي الحلم عندما أبصر، بل كأنه «وجه الله» ذلك الذي كانت تخبرنا عنه أمي عندما كنا نحجب نظرها عن شيء جميل تشاهده.

- تأخرت يا «طارق»!

- أيقاس تأخري هذا؟

- بمقدار كوابيس كرهت بها كل الوجوه.

- أثق بأن ما بين يدي سيغفر لي.

يقترب مني حاملا حزمة من الأوراق، يجلس إلى المقعد بجانبي، يشرح لي أنه وبعد البدء بالجلسة الأولى من العلاج سيكون أمامي تسعون يوما قبل إعلانهم شفائي الكامل من أي شيء.

«يشعل قنديله في عتمة البلاد، يسرقني إلى العقل،
معه، أسير على أطراف أصابع الكلمات،
في إحدى المرات قلت له إنني أرفض أن أكون شريكتهم في الوطن!
- لماذا؟
- لا أريد أن أشارك لصوصًا في سرقتهم.
ضحك، قبل أن يعرف جدية حديثي عندما تابعت:
- أتعلم يا طارق، يجب أن يحاكموا على سرقتهم الوطن منا قبل محاكمتهم على الأموال التي اختلسوها.
- أثق بأن التاريخ سينصفكم.
- أوليس التاريخ تهمتنا بالأساس؟
- ربما ليس الآن، الأجيال القادمة ستجني قطاف هذا التاريخ».

‘‘‘

‘‘

‘

فيا من دنا..

كيد سماء تحوفني، وأنا عصفورته التي ألحق به دون أجنحة، ينفخ بحديثه حياة في روحي، وكلما أتعبني الخذلان والذاكرة كان كماء يتدفق من سراب الوطن، اعتاد أن يروي عطشي من كل شيء، وأنا التي أرويه هنا دون علمه، سيعرف اهتمامي بتفاصيل لقياه، أو مكان اختبائه بداخلي كلما شعرت باقتراب القدر لخطفه.

إياه يا من يسير القلب إليه، نحوك.. نحوك، أضبط بوصلة استداراتي في هذا العالم القبيح، فما أنت إلا وارث أرض الله في الحب، قد كبر بي عشقك، أرتمي في جلسة علاجي الأولى نحو المقعد المائل، يتمدد بي طيفك على كامل الجسد، لم أزل مغمضة العينين، ولم تزل الوجوه تخيفني.. إلا وجهك، قادوني كفيفة نحو موعد العلاج الأول بعد يومين فقط من وجودي بهذا المكان الجديد، وعندما عرفت الطبيبة المعالجة سبب إغماضي هذا، أرخت الستائر والأضواء نحو العتمة:

- بإمكانك الآن أن تبصري في هذا الظلام.. لن تري شيئًا بوضوح.

نقطة أولى في رصيدها..

- أتعلمين أنك أجمل من شاهدت بين شركائي هنا.

ينفك عقد حاجبي من هذا الإطراء.. نقطة ثانية برصيدها.

توالت نقاطها الأخريات سريعا، عندما راحت تتحدث دون حتى أن توجه أيّ سؤال لي:

- اسمي «أسماء»، لكنني أحب دوما أن تسقط همزتي من أفواههم، كما كانت جدتي تفعل دوما وهي تناديني «أسما»، أكره كلمة مرض، أعتقد أن شفاءنا من شعور هذه الكلمة هو العلاج الأساسي مما نعانيه، بقية الأشياء ثانوية يمكن التغلب عليها أو حتى معايشتها، نحن سنعمل معًا على مساعدة بعضنا البعض في التخلص من كل الندوب التي نعانيها.

أقتنص لحظة صمتها الاخيرة:

- اسمي بتلة، في طفولتي طلبت من أبي أن أستبدل اسمي، فقال بأنني إذا كبرت سأصبح وردة، أكره خانة الجنسية في كل هويات الأوراق الرسمية، أخاف الظلمة لكنها أصبحت الآن ملاذي من رعب التحديق، أتعبني البحث عن إجابة سؤال نفسي: من أنا؟ عندما حاولت الانتحار لأول مرة كنت أهرب إلى الله من هذه الحياة، وفي فعلتي الثانية حاولت معرفة ما إذا كان داخل جسدي روح أم «لعنة»، لكن السكين التي عانقت وريدي خطت طريق قدومي إلى هنا دون يقين أتأكد به من إجابة ذلك السؤال.

وعندما شعرت بعدم إنصافي له توقفت قليلا قبل أن أواصل الحديث:

- لكنّ عينيه أنجبتاني مجددا، لا أعرف كيف كان يجذبني إلى الضفة الأخرى من هذه الحياة، ليس هذا فقط، بل صوته وهو يلبي لي مطالبي، كأنه سيد ملائك البشر، يصارع بي نحو سبيل نجاة لا أرغب فيها.
- أين التقيتِ به؟
- هنا، هو زميلكم اسمه الطبيب «طارق».
- حقا! يبدو أن طاقمنا كبير جدا لدرجة أني لم أسمع به من قبل.

أتى قبل هذا اليوم بملفي، وأخبرني بكل تفاصيل خطة العلاج، حتى إنه أعلمني بموعد جلستنا هذه.

من الجيد أن يكون هناك شخص ثالث معنا، سيساعدنا هذا دون أدنى شك.

قبل أن تضيف:

- دعينا نصنع مغامرتنا الخاصة بنا.

أسألها كيف ذلك..

- لـمَ لا نرجـع إلـى الـوراء قلـيلا، نصـغر بأرواحنـا إلـى حـد أقسـى ذكريات الطفولة، يقول أحد الفلاسفة: «أنت روح ولديك جسـد»، وطالما أن الروح ليست بالشيء المادي فبالإمكان تشكيلها كيفمـا نريد، كأن نعود بأدراجها سنين طويلة أو نتقدم بها دهرا، منـذ وقـت طويـل وأنـا أرغـب في أن يشـاركني أحـد هـذه المغـامرة، سـبق أن جربتها لوحدي من دون أن أشعر بكامل جمالها.

تضيف:

- تعالي نختر أولا عمرا شكل مرحلة فارقة في الطفولة، ذكراه لم تزل عالقة في ذهنك إلى اليوم.

أقول لها:

- ربما التاسعة.
- لماذا؟
- كانت المرة الاولى التي أشعر بها بأن الفقر قد فضحني، لم تسـترني ثياب المدرسة الجديدة التي ابتاعها لي والدي، نمـت حينهـا وهـي معلقة بمسمار الحائط أعلى فراشي، كنت أحلم بفرحة العودة إلـى الدراسة مجددا بعد أن حرمت منها في السـنة الماضـية لعـدم سـداد فروق الرسوم، سرَّحت أمي شـعري في الصـباح، لـم يكـن بحوزتهـا

سائل العناية بالشعر، سكبت القليل من زيت الطعام على المياه وراحت تسحب خصاله إلى الخلف، حصدت بخلطتها تلك تسريحة «ذيل الحصان». دهنت بالزيت أيضا رغيف خبز ووضعت فوقه الزعتر قبل أن تلفه بمنديل وتدسه في حقيبتي، حقيقة أنها لم تكن جديدة بل كانت حقيبة شقيقتي «كريمة»، بينما أمي قد خيطت فتوقها قبل ذلك وغسلتها لتبدو كالجديدة. أيضا صنعت ذلك بحذاء «حمدة» الأسود الذي قد ضاق عليها، فرحتي برائحة ثياب المدرسة الجديدة قد طغت على كل تفاصيل «القِدَم» تلك، أذكر أنني كنت قد تجهزت تماما حتى قبل أن يستفيق والدي من منامه أو أخي «زياد» الذي كان سيلتحق بالصف الأول حينها، أما أنا فبالصف الثاني، تخيلت أن يكون للمدرسة ذراعان يحتضنان جميع طلابها في سنتهم الجديدة، أو أن تقوم مديرتها برفقة بعض المعلمات بتوزيع الورد وقطع الشوكلاتة علينا عند الباب، تخيلت أيضا أن يكون للفصل رائحة كرائحة ثيابي هذه، كذلك خبأت مناديل أخريات في جيبي غير التي أعطتني إياها أمي كي أقوم بمسح الكتب الدراسية إذا ما كان بها ذرات من الغبار.

أتابع الحديث كأن كل ذلك قد حصل البارحة:

- تطلب أمي مني أن أذهب لأنبه والدي من منامه، أشعل الأضواء، كان أبي لا يزال يئن كلما خلد في عميق نومه، اعتاد أيضا أن يضع وسادة على وجهه، ربما منعته الوسادة من أن يوقظه الضوء، أقف

إلى جانبه، أزيل وسادته ليستيقظ أخيرا، اقول له بعد أن وقفت على أصابع أقدامي وأرخيت رأسي ليميل إلى الجانب الأيمن: «أبي، ما رأيك فيني». ربما كنت بذلك أجمل ما استفاق عليه والدي، نهض ليحتويني بذراعه دون أن يقول لي كم أبدو جميلة، نجلس إلى سيارة أبي، لكنني طوال الطريق كنت أقف لكي أطمئن إلى غرة شعري بنفس الترتيب الذي صنعته لي أمي. نصل أخيرا، وبخلاف كل الأطفال في أيام دراستهم الأولى كانت تغمرني سعادة لا يمكن وصفها سوى بأنني رغبت في أن أقفز فرحا ولا أسير من مواقف السيارات إلى باب المدرسة كي لا أتأخر. صحيح أنه لا يوجد شعور عام يطغى على الناس جميعا، كل منهم ينتابه الإحساس بحسب حرمانه ومتناوله، لكني لم أكن طفلة «البدون» الوحيدة التي ينتابها شعور الفرح بالعودة للمدرسة في يومها الأول، كأنني وكأنهم كنا الفرقة الناجية من الجهل، ربما حدث ذلك بالأمس أو أنه مستمر بالحدوث إلى هذا اليوم وغدا أيضا، طالما هناك أحياء من أبناء جلدتنا وحرماننا. أنزل أبي قبل ذلك أمي و«زياد» في المدرسة التي بجانب مدرستي، اصطحبني هو إلى الداخل، ذهبنا إلى جناح الصف الثاني، فتَّش في الأسماء المعلقة على أبواب الفصول عن اسمي دون أن يجده، رجع وبحث ثانية عنه دون جدوى، وعندما كنا في إدارة المدرسة للاستفسار عن اسمي وجدت معي عديد أولياء الأمور وبناتهم، وقفت إلى جانب

نظيراتي، دخل أبي إلى الغرفة المكتظة بالآباء والأمهات، وعندما خرج أحدهم من تلك الغرفة كانت ابنته تقف إلى مقربة مني، سمعت حوارهما جيدا:

- أبي هل وجدت فصلي؟
- نعم وجدته، لكنهم قالوا ليس بوسعك أن تدخلي إليه اليوم.
- لماذا؟
- هم يريدون النقود، غدا سوف أوفرها لهم.
- ألا تملك شيئا منها اليوم؟

يخرج الأب محفظته لابنته:

- أنظري، أموال قليلة وهم يريدون الكثير.

أعطاها نصف دينار لإسكاتها، وراح يجرها من يدها بين كل ذلك الازدحام، كنت قد استمررت بالنظر إليهما، كيف كانت الطفلة ترفع رأسها إلى والدها، ربما كانت تترجاه حتى اللحظة الأخيرة بأن يدفع لهم.

طأطأت المسكينة رأسها عندما بدأت البكاء، لم تسقط دموعها أرضا وحسب، بل سقط نصف الدينار الذي أعطاها والدها، فلا ثمن يمكن مساومة حزنها به.

خرج أبي، تلقف وردته من بين تلك الأزهار الذابلة في ممرات إدارة المدرسة، حملني بعيدا عن مشهد آخر قد ينتبه إليه أحد، لم يتفوه كلانا بأي كلمة، لكن عندما تخطينا باب المدرسة العريض قلت له: «خلاص راح نروح؟». نظر إلي وقال سريعا: «طلبت منهم أن يمهلونا ساعات

قليلة إلى أن نختار نحن الفصل الذي نريد». بدأ لي أنه فكر مسبقا في تلك الإجابة التي لم تأخذ لقولها وقتا طويلا بعد استفساري، علمني الحوار في مشهد الطفلة تلك أنه كان يكذب علي، لكنني لم أستطيع أن أصارحه بهذا، ذهبنا إلى مدرسة «زياد»، أمسك بيدي وسار بي إلى فصله، وجدته كالقمر الجالس إلى الطاولة الأولى، لكني عندما قاومت الدموع أن لا تخرج من عيني كنت أقبض لاإراديًّا بيدي الصغيرة على أصابع أبي، أتت إلينا أمي، بللت «برقعها» ببكائي، تركنا «زياد» ملوحا لنا في فصله واتجهنا نحو السيارة.

قال أبي بصوت منخفض لأمي إنهم طلبوا دفع قسط من فرق الرسوم لكي يعطوني مقعدا دراسيا، لكنه أعاد حديثه السابق لي بصوت مرتفع محاولا أن يزيح شيئا من حزني، لم يعد بنا إلى المنزل، ذهبنا إلى حظيرة أغنامه، وحتى قبل أن تطلب أمي مني عدم النزول لأحافظ على ثيابي الجديدة كنت عاقدة العزم على أن ابقى في السيارة، وبعد أن انتهى هو وأمي من إطعام الأغنام ووضع الماء لها، كان والدي قد أصعد اثنتين منها في الحوض الخلفي للسيارة، قبل أن نتوجه إلى سوق الماشية.

أجلس على ركبتي لأنظر من الزجاج الخلفي كيف اجتمع بعض الرجال حول الأغنام لتفحصها، صعد أحدهم إلى حوض السيارة أيضا، راح يعلن بصوت عالٍ عن بدء المزايدة عليهما، لم يدم الأمر طويلا قبل أن تتم الصفقة مع شخص ما، بدا الأمر أكثر جدية الآن من ذلك الحديث، رجعنا مرة أخرى إلى مدرستي، رجعت الابتسامة أيضا إلى وجهي، تبدد

قلقي من تكرار ذلك السيناريو مجددا عندما أخرج والدي النقود من جيبه وقطع بها وصل القسط الأول لي، التفت إليَّ ليسألني: «أي فصل تريدين؟».

لم يكن أبي بكاذب.. الوطن هو من خيَّل لي ذلك عنه».

«سيد الظل تمدد من فراغ أسفل الباب
انتظرته أن يفتحه.. لم يفعل ذلك
نهضت أجرُّ نفسي إلى الجانب الآخر من ذلك الحاجز الخشبي بيننا
يفترش ظلي أرض جسده، ربت بيده خيال رأسي:
- متى تنتهي «لعنتكم» هذه؟
أتكئ على الحائط:
- لا تقلق لن يطول الأمر حتى لا أعود أنا!
لا أفسح له وقت التفكير بذلك قبل أن أسأله سريعا:
- أوتخشى إن كبرت في لعبتنا أن لا أعرفك؟
- بل أخشى أن لا تعودي طفلتي!
‘‘‘
‘‘
‘
فيا من دنا..

أصغر بروحي سنين.. أنت ضوؤها، كأن العمر لم يحسب بأعوام العتمة في هذه الحياة! عدت طفلة حقا وإن بدا جسدي غير ذلك، وعندما طال زمن ظلّينا أدار أغنية في هاتفه وقذفه من أسفل الباب، أتلحف بغطاء سريري وأجلس أستمع طوال الليل إلى أغنيته تلك، وكلما انتهت أقذف الهاتف صوبه ليعيد تدوريها مجددا، قلَّ الحديث بيننا بالوقت الذي كان يكثر به مع طبيبتي «أسماء»، وعندما كنت أتذمر لها ذات مرة عن ذلك،

عللت هذا بأنها طلبت منه أن يفعل هذا الأمر لمصلحة مغامرتنا أو لعبتنا هذه، قالت لي أيضا إنه كان شخصا مهذبا عندما قابلته، قبل أن يدنو رأسها من أذني لتهمس لي:

- لا تلامين لإعجابك به.
- هل حدثك بشيء عني؟
- لا يفعل رجال الشرق هذا الأمر غالبا، لكن ارتباكه أبلغ من أي حديث.

تجاوزت معها خوف النظر إلى الوجوه، رفعنا ستائر الغرفة لتخترق أشعة الشمس حديثنا، أوقفتني مرارا عند محطات الطفولة، قالت لي مرة:

- تخيلي أمرا لم تشاركوا به لم يحدث، ماذا سيتغير برأيك؟

حقًّا ماذا سيتغير!

قلت لها بعد تفكير:

- لو لم تصلِّ المساجد صلاة استسقاء لما مات أبي جراء صاعقة!
- سألتك من قبل عن موت والدك، هل هناك شيء ما لم يحدث كانت لتغيرت أمور كثيرة معه؟
- ربما لو بقى عمي هنا في الكويت لتغيرت بعض أشياء.
- أين رحل؟
- لم أكن مدركة تماما عندما رحل، لكن أمي حكت لي كيف أنه بعد تحرير الكويت مباشرة اعتُقل في أحد حواجز التفتيش العسكرية قبل أن يُزج به في غياهب السجون لعدة أشهر، وعندما خرج أعلن

عزمه الرحيل عن هذه البلاد، أخذ مستحقات وظيفته السابقه ورحل هو وجدتي وزوجتيه وأبناءه الصغار إلى «مصر» بعد أن استخرج جواز سفر «مزور» من أحد المكاتب التي كانت تبيعه في البلاد، حينها كنا نسكن في منطقة «الحساوي». كان أبي يذهب باستمرار إلى إحدى غرف الاتصال «غير الشرعي» في منطقتنا للاتصال به، لكن هذه الاتصالات انقطعت تماما بعد وفاته وانتقالنا للسكن في «الصليبية».

- لو كان هنا ولم يرحل ماذا سيتغير؟
- لن يخيب ظني في جعل هذه الحياة أفضل، ربما قد لا يكون على قيد الحياة حتى اليوم، أذكر أن آخر الأخبار التي سمعتها منه كانت من زوجة أحد أقربائنا التي التقت مع أمي صدفة عندما كانت تزور المقبرة، قالت لها إن زوجها استطاع في زيارته الأخيرة لمصر الوصول إلى عمي «كريم»، ووجده يسكن في منطقة بعيدة جدا يحيط بها تلوث أدخنة المصانع من كل صوب، قالت أيضا إن زوجها تفاجأ بأن أبناءه جميعا كانوا يتحدثون لهجة البلاد التي هم بها كأنهم أهلها فعلا، وأن ثلاثا من بناته تزوجن فعلا من أشخاص هناك.

تسألني:

- لمَ تبتسمين؟

- لم تعلم تلك السيدة أن الفقر هو الآخر تلوث، لكن ربما حديثها ذاك جعل أمي تحتفظ طوال حياتها بفكرة تزويجنا قبل أن تموت، لم تكن تريد لنا أن نواجه مصيرا مشابها لمصير بنات عمي.
- وهل تروق لك فكرة الهجرة بعد كل هذا العذاب؟
- لا أعلم من الذي قتل بي الأحلام، لذا لم أفكر بشيء من هذا القبيل من قبل، قد أكون مذنبة بجزء من هذا بأن أجعل كل ارتباطي بالماضي أكثر، دون أن أعي أن لا أحد يستطيع تغيير الأمس تماما، كما أن لا أحد من «البدون» يملك المقدرة على تغيير الغد، فما نحن سوى هامش الوطن المركون بأسفل صفحاته، لا ينظر إلينا إلا نادرا.
- ماذا لو نجحت «لعبتنا» هذه في تغيير الأمس، دعينا نفعل ذلك حتى نصل إلى غدٍ!

معًا، كما لم نكن قد كنا، صغرنا بالحديث إلى حد لا مبالاة الطفولة بكل هذه الجروح، دون أن أعي تماما بأنني معها أصبحت أحلم، لا أذكر إن فعلت ذلك قبل الآن، حلمت بأن لأبي بطاقة مصرفية نتبضع بها، وبمدارس كانت ملاذ مستقبلنا، حلمت معها بأن أمسنا كانت به موائد طعمام مملؤة بالأكل، ينهض والداي منها من دون جوع، وأننا كنا نملك ترف استبدال طموح المستقبل بكل عام يمضي من أحلام العمر تلك.

أصبحت أعيش «لعبتنا» تلك، وكلما تعثرت بغموض ما أسألها فتجيبني، حتى بدوت في داخل نفسي أنني لست أنا بل التي صنعتني هي.

لم أحسب عدد الأسابيع التي مرت معها، تأقلمت مع هذا المكان ومواعيدها، أسمع بين اليوم والآخر صراخا شبيها لذاك في دخولي الأول هنا من غير أن يحرك بي ساكنا، أصبحت متصالحة كثيرا معها ومع نفسي ومع هذه الجدران، بل إنني كما الأطفال الساقطين من مراجيحهم تماما، عينٌ على النزيف والأخرى على إكمال اللهو، فما الحديث إلا سلوى البسطاء، أو أنني لا أملك شيئا آخر غير ذلك، تماما كما مضى «طارق» معي ليلة بليلة، لم يقاوم وعده لطبيبتي «أسماء» بالغياب المؤقت لحين العلاج المزعوم، قلت له بعد خلسة من صمت مطبق:

- أنت الذي لا طاقة لي على الشفاء منه.
- لم تنصفيني بجعلي وباءً بك!
- أوليس غريبا أن تبقى وفيا أكثر منهن!
- ألا تعلمين أن الفقر شركُ الفقراء الأعظم، وأن الناس يخونون وجعهم، لكن حين ينتهي هذا كله سيحضرون حتما.
- يجتاحني الشوق لهن كلما خلوت مع نفسي، لماذا يا ترى كتب علي التنقل بين وحشة الأماكن ولهفة رؤية الأحباب؟
- قد يحسدك بعض الخاوين على مشاعرك هذه، أولئك الباهتين من ملح الإحساس أيا كان.

قبل أن يضيف:

- سأقوم بالاتصال بهن وإيصال رسالتك هذه.

- اتصل ولا تنقل، لا رغبة لي بانتزاع تحررهن هذا إلى محبس التفكير بي.
- وماذا عن هذا الباب الموصد، أما حان إيذان فتحه؟
- لم أستطع الكذب على «أسماء» بقطيعتك، قالت إن كان لا بد من ذلك فلا تقابليه، فقط استمرا بالحديث من خلف الأبواب لحين الانتهاء من برنامج العلاج. بالمناسبة، أخبرتني أيضا بأنهم سينظرون بأمر إرسالي إلى جناح آخر غير هذا، توسلت إليها بأن يعيدوني إلى ذلك المكان الذي نقلوني له في أيامي الأولى، وعدتني بأن تبذل جهدها بهذا الأمر، وإن كان من المفترض بحسب قواعدهم أن أنتقل إلى قسم آخر غير الذي أريد.
- يبدو أنني لا قوة لي على التأثير بقرارهم المنتظر!
- لماذا؟
- ثمة أحاديث تدور حولي وحولك، لم أحاول نفيها أو تأكيدها، لكن تدخلي بهذا الأمر سيكشف لفضولهم الكثير.
- أتفهَّم..

يقاطعني:

- من المحظورات هنا أن يقيم أي موظف علاقة ما بنزيل، لربما «أسماء» خشيت أن تقول لك هذا الأمر صراحةً، لكنه سيؤثر علي في استراق هذه اللحظات معك.

يضيف:

- جاهدت كثيرا لأبقي ساعات عملي في مناوبة المساء فقط لأحظى بهذا الذي نحن به الآن.
- وهل من مخرج ساذج نحو عدم المقارنة بينك وبين شقيقاتي؟

لم يقل إنه بقية الله بي، ولم أقل له هذا أيضا، فبعض الحديث ما هو إلا تقليل لمشاعرنا.

أجده يدير مقبض الباب في حين غفلة صمتنا هذا، تكسر رغبتي للقياه كل هذه المحرمات.

يضع المقعد إلى القرب من الحائط، يدفعه بظهره إلى الخلف بعد جلوسه، تُرفع قاعدتا المقعد الأماميتين أعلى الارض، يقول بعد أن حاز فعله على كل تركيزي:

- في هذا الوضع أنا أحتاج إلى حدسي ليقرر، التفكير سيأتي لاحقا.
- ستسقط..
- هل تتزوجينني؟

يسألني ويمضي سريعا نحو القول التالي:

- أتعليمن أننا أقرب إلى الجنون الآن من أي تعقل؟

- بأيهم ستكون زوجي؟
- لك الاختيار.
- وإن خنتك مع نفسك؟
- لا عليك.. سننصهر واحدا عما قريب.

وقبل أن تتحقق نبوءته كنا قد انصهرنا سوية كما لم نفعل ذلك طيلة المرات السابقة.

يقين

«كتبت له موعدا وسط صحراء..
لم يكن بفمه أو بورقه، كتبته هكذا بين فراغ شهيقينا
ويحملني الزفير إليه، فوق رمضاء وطن
ولا لقاء دون إثم: يلسعني انعكاس الشمس أرضا
ولا بوصلة توجهني سوى كل هذا الشوق!
أأقولها له الآن؟
- اهدني ورقة زواجنا.
- ومن سيكون شاهدا على كل هذا؟!
- للقبور شواهد أيضا.. ألا تثق بموتهم؟
،،،
،،
،
فيا من دنا..

كفرحة أزهرت في يتمي وطن، وأنا التي شحذت سؤالهم.. ولا إجابة تملأ فراغ وحدتي منك بين حيطان إيواء المختلين هذه، حتى عندما صحبتني طبيبتي «أسماء» إلى نادي القراء في صباح نقلي إلى الجناح الجديد:

- تزودي من بين كل هذه الكتب، ستحتاجينها في لياليك هناك.

لم تكن هذه سوى المرة الأولى لي بين رحاب كتب غير مدرسية، تصفحت عناوينها دون أن أضع أيا منها في حقيبتي الصغيرة التي أحملها، وحينما أثار تبلدي «أسماء» بادرت إلى أخذ زمام الاختيار مني، وضعت بعض الكتب الخفيفة ذات العناوين الملفتة على تجاوز العقبات النفسية، لكنها في خضم ما اختارت لي وقفت هي الأخرى مطولا أمام إحدى الروايات، قلبت الكتاب إلى غلافه الخلفي، قرأت ما به قبل أن تعيده إلى حيث كان.

- لا أعلم من أتى بهذا إلى هنا!

قالتها وهي تعيده، لكن الطفل الذي كان يسير نحو جرف «مقبرة الغرباء» كان أكثر إغراء لكي أختلسه من بين الرف وأدسه في حقيبتي دون أن تنتبه أسماء لفعلتي هذه.

عرضت أن نسير على أقدامنا نحو الجناح الجديد:

- على الرغم من بعد المسافة لكن الجو مشجع لأن نذهب إلى هناك مشيا وليس بسيارة الإسعاف.

ظلت تمسك بيدي طوال الطريق، كانت ذكية بالمقدار الذي تضغطها كلما أرادت لفت انتباهي للحديث أكثر، بعد أن انشغلت لفترات في تحسس اندماج دفء الشمس برياح كانون الثاني الباردة.

- ستكون هذه المحطة الأخيرة لك قبل أن يُصرح لك بالخروج نهائيا من هنا.

- حقا!

- تعتبر هذه الفترة بمثابة النقاهة، لقد تجاوزنا الفترات الأصعب خلال الأشهر الماضية. وكتبت في التقرير أنك أكثر قدرة مما مضى في مواصلة حياتك بعيدا عن هذا المكان.
- لا أعرف كيف أبدأ من جديد، لكن «طارق» قبل أيام قال إنه سيتصل بشقيقاتي لمعرفة سبب قطيعتهن، لربما ساعدني وجودهن الآن في كسب مزيد من الثقة نحو مواجهة الحياة بالخارج.
- الجزء الاهم من حديثي هو أن «طارق» لن يكون بمقدوره الحضور إلى هذا المكان الجديد، أما المفاجأة السارة فهي أن شقيقاتك ينتظرنك هناك. ما لم أقله لك سابقا أنني طلبت منهن أن لا يأتين إليك خلال الفترة الماضية كجزء من خطة العلاج.

قبل أن تضيف:

- سأصارحك بأن المشكلة الكبرى كانت في تواصلك مع «طارق»، حاولت جاهدة أن أجعل حضوره جزءا من الحل وقد نجحت في هذا حتى الأمس، لكن بدءًا من اليوم سيكون عليك الاعتماد على نفسك فقط في التغلب على فكرة التواصل معه، أقلها خلال هذه الفترة، وبعدها سيكون لكل حادث حديث.
- كم ستطول هذه الفترة؟
- يعتمد الأمر في المقام الأول على التقرير الذي سيكتبه الطبيب المشرف على حالتك في هذا الجناح، ثم سيكون هناك ثلاث

لقاءات على فترات متقطعة مع لجان يتم تشكيلها لتعطي القرار الأخير بخروجك من عدمه.

- وهل أخبرته بهذا؟
- نعم، وقد بدأ متفهما لهذا الأمر، حتى إنه طلب مني أن أشجعك على عدم التفكير به، فهو من الأشخاص الذين لديهم قدرة خارقة على الشعور بتفكيرك به ولن يقاوم أن لا يأتي لك حينها، بدا لي أنه سيكون حريصا بمقدار حرص كلينا على إتمام شفائك الكامل من كل هذه الأعراض.
- ماذا عن الوعود التي قطعناها لبعضنا البعض؟
- أنت الآن بمرحلة بناء حياة جديدة تماما، وبعد أن تخرجي من هنا ستجدين نفسك تعيدين قراءة وفهم كل شيء حدث في الماضي، وستمضين بحياتك على الشيء ومقتضاه.

لم أفهم كل ماتريده مني، لكنني سألتها بشعور أن لا أفقدها هي الأخرى في الأيام القادمة:

- هل ستكونين معي؟
- بكل تأكيد لن أنقطع، سيسمح لك هنا أيضا باستخدام الهاتف الموجود في غرفتك، وباستطاعتنا التواصل مع بعضنا بعضا في خارج أوقات العمل.

نجتمع أخيرا.. ولا أعرف حتى إن كان آخر اجتماعاتنا، كستار كعبة كان جسدي لهن، يتعلقن به معانقاتي كأنهن يطلبن بذلك غفراني لكل ذلك الجفاء.

ماتت أمي وهي نسيت أن توصينا ببعضنا البعض، سارت على خطى الرحيل المفاجئ لوالدي وشقيقي قبلها، أو أنهم جميعا نبشوا في دفاترنا فلم يجدوا فراغا قد تركه الفقر لجملةٍ ما.

أربعتنا نجتمع مجددا، بقرابة الحرمان أولا والدم ثانيا، بقرابة القبور التي دَفنّا بها بعضنا بعضا، والريح التي كلما هبت جنوبا رطمت فوق رؤوسنا جوعا يتلو جوعا، وما أصوات أمعائنا الفارغة في ما مضى سوى ترتيل «العوز» الذي لقتنه لنا أمي ذات عزاء لكبيرنا ومعيلنا.

والآن، نشبع طعاما ونجوع وصالا! ويا ليت أهلنا علمونا فيما مضي انتظار دوران الزمن، فما وقتنا يطابق تاريخ دولة، بعد ان أُسقطنا عن سابق ظلم من بين أوراق كانت لتجعل اجتماعنا هذا بغير موضع وغير مكان.

تشمّني، تأن «سعدة» بقول: «يا ريحة هلي»، تفتش «حمدة» عن مكان بين عيني لتقبلني، تضغط «كريمة» علي يدي لأشعر بالأمان، كنت طفلتهن لا شقيقتهن، أتوه بين أيديهن فلا أعرف من أقبض عليها ومن أقبلها، أصمد بوجه مدافع بكائهن دون أن يرف لي جفن دمعة، يفعل عوضا عني ذلك الرضيع في مهده، أنستني حفاوتهن تلك تفحص كل ضيوف غرفتي الجديدة، كان ينام بمهده فوق السرير، بغطائه الأزرق البهي، لم يكن يبلغ من العمر سوى أسابيع قليلة ليس أكثر.

«يا روح خالتك» أقولها وأنا أتناوله من بين يدي أمه، أطربني بكاؤه فوق راحتي.

أعود به إلى مكان غطائه، أفك قماطه، كأني أحرره من قيود الخرق الملتفة حول جسده، يطلق العنان ليديه ورجليه، أعد أصابعهما قبلة قبلة، ترضعه «كريمة» بينما أنصرف عنهن تماما بالتحسس على بقيه جسده، لم أسألها عن اسمه، سيان عندي إن كان باسم أو من دونه طالما أن لي قرابة حياة أتى إليها من رحم أمه.

وهن، كأطفال عيد رحن يثرثرن من حولي، يسألنني من غير أن يملكن وقت الاستماع لإجابتي ليعدن بعد سؤالهن إلى الحديث عن حياتهن، لربما وجدن بقلّة حديثي شيئا من تجاوزي لكل تلك المحنة، هن لم يعتدن علي مسبقا على غير ذلك، أنصت إليهن جيدا، بل إنني رحت ألقي عليهن بعض أسئلة التفاصيل، كأنني بهذا أفرد عضلات عقلي بوجه مشهد جنوني الأخير الذي احتفظن به طوال الأشهر الماضية.

أذكر أن «سعدة» أتت إلي آخر مرة معنفة، حاولت أن تخبئ آثار الكدمات بمساحيق التجميل دون أن تقوى ألوانها الاصطناعية على إزاحة زرقة جفنيها أو ذلك الفتق في شفتها السفلى.

وأذكر أن «حمدة» كانت حاملا بالشهور الأولى في ذلك اللقاء، لكنني لم أكن بحاجة إلى سؤالها عن ذلك بعد أن تجلى لي انتفاخ بطنها إثر نزعها لعباءتها، بدا لي أن الأيام القادمة ستشهد وليدا آخر لنا.

- الا تحملين بجسدك شيئا غير الكدمات؟

أقولها لسعدة، أقصد بخبث إن كانت حاملا..

تجيب:

- كما فعلتِ تماما بهذا الطفل، تحررت من كوني مقمطة أمام لكماته، لو تعلمين كيف ساعدتني «فاطمة» في الآونة الأخيرة..

أقاطعها:

- أفاطمة من كانت تجاورني هنا؟

- هي ذاتها، فتح الله بها بابا لي للفرج من معاناتك، ظلت طوال الأيام التي خرجت بها من هنا تتواصل معي باستمرار، بل إنها كانت تزورني بين الحين والآخر لتوثق بهاتفها آثار الضربات في وجهي وجسدي، وحينما واجهته أمامي ذات مرة قال لها إن بقائي عنده مسألة استعطاف، فمصيري لن يكون سوى الشارع إذا ما تطلقت منه، وحينما صرخت في وجهه حاول أن يعتدي عليها هي الأخرى، لكنها ليست بقلّة حيلتي، وقفت أمامه كلبؤة تشهر أنيابها أمامه، غادرت لتحضر بعدها بقليل برفقة سيارة شرطة، كان حينها قد بدأ فعلا «حفلته» بالانقضاض عليَّ ضربا، شجعني موقفها ذاك على الصراخ عاليا لأول مرة، ورغم أن ذلك الصراخ كان يزيده سعارا بمواصلة الضرب بقوة، لكني لم أتوقف عن فعل ذلك، شعرت لأول مرة بأن صوتي هو قوتي، وأن أيام الصمت تلك لم تعكس حسن تربيتي أو رفعة أخلاقي. امتلأت يداه بخصال شعري وهو يجرني من آخر البيت إلى بابه، قبل أن يفتحه على مصراعيه

ويرميني إلى الخارج، لم يكن الشارع بالنسبة لي سوى قفص كبير كنت به حيوان «السيرك» الذي ينتظر الجمهور الملتف حوله أن يؤدي بقية دوره على وقع سياط مدربه، وقبل أن أفعل ما انتظروه كانت فاطمة تنتشلني نحو مركبتها وتنطلق بها نحو قسم الشرطة، تجري خلال ذلك بعض اتصالات لم أفهم من محتواها سوى العنوان الذي كنا به. توافدت مجموعة من النساء، تضمني كل من تصل إلى هناك، يمتلأ حديثهن غضبا كلما رويت أنا أو فاطمة ما جرى قبل قليل، خرجت إحداهن من قسم الشرطة لتصحبني إلى الداخل، قالت لتهدئتي إنها محامية رتبت في الداخل إجراءات رفع القضية، ارتعدت خائفة من كلمتها الأخيرة تذكرت كبائر كفر أهلنا بالعادات التي علمونا إياها: إن الدخول إلى هذا المكان ليس سوى خروج من الانتماء الأسري، فررت من عندها إلى فاطمة متوسلة أن لا تتركني أذهب للداخل، التأمن حولي بكلماتهن الحادة بعدم التفريط بحقي القانوني بفعل هذا الأمر، وأنهن مهما حدث لن يتركنني أعود إلى حيث كنت، شجعتني كلماتهن على الجلوس أمام مكتب المحقق، لم يدم تعاطفه معي سوى دقائق معدودة قبل أن أنتبه إلى وجود زوجي خلف الرجل الذي طرق الباب.

قام المحقق من مكتبه مرحبا به، ثم خرج معه إلى مكان بعيد عن ناظري، لحقتهم المحامية إلى حيث كانوا، وجدت فاطمة وبقية

السيدات الأخريات بهذا الوقت فرصة للقدوم إلي بعد أن كان المحقق قد منع وجود أي منهن في الداخل سوى المحامية، تعلمت في ذلك اليوم أن صوت النساء ليس بعورة، وأن صمتهن ضعف، واستقبال وجههن اللكمات ذل، وأن ليس من هوان القدر أنهن خلقن إناثا بل هو محل علو، كل هذا تجلى عندما بدأ صوت المحامية في الخارج بالارتفاع تدريجيا، قبلها كانت السيدات المحيطات بي يوثقن بكاميرا ما حلّ بي، قلن إنهن من جمعيتين للدفاع عن الحقوق النسوية، وإن حالتي موثقة لديهما منذ وقت سابق إثر تواصل «فاطمة» معهن، وعند عودة المحامية إلينا كانت لا تزال في فورة غضبها، قالت إن المحقق يحاول المماطلة في رفع قضية ضرب كاملة الأركان والمعالم، وإنه تحجج بعدم وجود هوية إثبات شخصي لدي، وإنها حينما أصرت على رفع قضية أخرى مفادها السلب والسرقة لحاجياتي في المنزل، طلب المحقق من زوجي أن يذهب إلى المنزل لجلب هويتي، لكنها رغم هذا كله تشعر بشيء يحاك بينهم لعرقلة الإجراءات.

أصاب حدسها، تعلل المحقق أولا بأن صلاحية بطاقتي منتهية، أصرت هي تسجيل ذلك كملاحظة في هامش القضية طالما أن صحة بيانات البطاقة سليمة وإن كانت منتهية، هددت السيدات الأخريات بجعل حادثتي قضية رأي عام إن ماطل في استكمال إجراءاتها، طردهن مرة أخرى من مكتبه، أجرى بعدها بعض

الاتصالات للاستفسار عن وضعي القانوني، قال أخيرا بأنه طالما بطاقتي منتهية فأنا بحاجة إلى كتاب من الجهة المسؤولة عن «البدون» ليباشر تسجيل القضية، قالت المحامية وهل زوجها كان بحاجة إلى كتاب من الجهات المسؤولة عن المواطنين قبل ان يبدأ فعلته!

حاول الرجل الذي كان معه أن يضع الأمور في نصاب تسوية كان ضعفي سيقبل بها لو أن الفرصة أتيحت لي، لكن السيدات منعنني من الحديث وأوكلن المهمة للمحامية.

طوال ذلك، ظل زواجي صامتا، لكنه حينما نطق للمرة الاولى والاخيرة كان يلقي بوجهي كلمات الطلاق، سجلت المحامية ذلك كإثبات حالة في المخفر بشهادة المحقق نفسه.

أخذتني فاطمة إلى منزلها، اتصلت بسعدة وحمدة، أغلقت مجددا الباب بوجه محاولاتهن لعودتي بعد أن كانت تشهر ورقة التقرير الطبي للكدمات التي تعرضتُ لها أمام كل من تحدث عن ذلك الأمر.

رتبت لي فاطمة محل إقامة في منزلها، أحاطت بي بقية السيدات الأخريات بشكل كبير جدا بدءًا من ذهابهن معي إلى الجهاز المركزي للبدون من أجل استخراج ورقة رفع قضية، لكنني لم أحصل على تلك الورقة حتى هذا اليوم.

لم تكن تلك الورقة سوى يدهم التي أطبقوا بها على أفواهنا منذ عقود كي لا نخرج صوتا يقلق منامهم على إرث صنعوه في أحلامهم ليس إلا، إرث الإنسانية والخير هذا لم يكن سوى واجهة زجاجية هشة تغطيها أموال حقول محروقات هذه الأرض، كأنهم بهذا قد طبعوا على جبيننا عبارة: يسمح بسلب حقوق كل من يدمغ بعبارة بدون!

وحينما غاب عدل المؤسسات، ظهر عدل الله على هيئة تلك السيدات، وفرن لي فرصة عمل في مؤسستهن النسوية، جمعن بعض الأموال فيما بينهن ليساهمن في تأسيس استقلاليتي، تشاركت على إثرها بشقة مع امرأة سورية لم تكن إلا أكثر انكسارا مني، كانت تعمل معنا أيضا بذات المؤسسة.

وهأنذا، يكتمل شيء من راحتي بالاجتماع معك مجددا.

كل حديثها سكاكين تقطع أوصال سوء ظني، ضممتها لأعبر لها عن اعتذاري عن ذلك التفكير الذي لازمني طوال الفترة الماضية عن غيابهن، أو أنني اعتذر لها نيابة عن قدرنا البائس، وأنا التي قد حسبت قبل قليل أننا زدنا واحدا بذلك الوليد، وما علمت أن هذه الزيادة أتت بعد خساراتنا لأنفسنا، فها هو درس آخر يلقنه لي الوطن بعصاته: إن الربح هو أن لا تخسر شيئا، فكم ربحنا باحتساب كل هذه الخسارات؟

«طال انتظارك، وما علمت إلا به أن الغياب يفشي الأسرار
كلما سألتهم عنك، كنت بذلك أخدش ما مضى من لقاءاتنا
يشفونني منك.. يا علةً اشتهيت أن يطول عضالها
تغيب، دون أن يعلموا أن ذكراك بكل كل حضورهم

- أحبك.

- كم كنتِ بخيلةً بنطقها!

- أقولها كي لا تصبح أحرفها صدئة في صدري.

- أحبك أيضا..

كمن يسدد دين قولي لها قبل لحظات، فما الحب سوى تسديد مطالب قلوبنا..

‘‘‘

‘‘

‘

فيا من دنا..

لقلبي، أرباحا ورأس مال، وما أنا سوى ابنة متلازمة الاقتراض، يفرض علينا هذا الوطن ضرائب ذنوب أسلافنا ممن رأوا ورقة الجنسية سجنا لهم، كيف لا! وما البدوي إلا ملك للرمال التي تغوص بها قدماه بحثا عن مرعى لماشيته. فيا ربيع قلبي، وما الكويت سوى خريف أعمارنا، أسقطت أوراق أحلامنا في عاصفة قرارات بعض مسؤوليها العنصرية، كمن كنا نرى هذه البلاد وطنا، كمن كانوا يرونها نفطا!

أما فقد سبقت بدونيتهم البائسة بخطوات، عرفت من خيباتي أن الحب ملاذي الأبدي، إن عجز عنه جسدي سأناله بروحي، في عالم لا أوراق به تمنعك من تحديد مصيرك حاضرا ومستقبلا، فتعال معي نعلُ عليهم بصعود قلبينا، فما هي إلا جبال هذه الصحراء المدعاة بـ«وطن»، تعال نرهم من أسفل، لروح من الزمن، نخمن بأن ها هنا بئر نفط، ننبشه بأصابعنا فنصنع منه نهرا بين جنبات هذه البلاد، نغفو عشقا من الوصال، لنكتشف لاحقا أن لا ورود قد نمت من بين جنباته، أن لا بشر ارتووا منه.. وحتى موعد نضوبه تعال نمرر فرعا منه إلى الصليبية، أولئك الذين باعوا أنفسهم «خاما» للبلاد، فـ«كررتهم» جنودا وأطباء وموظفين طوال كل تلك السنوات، قبل أن ترميهم في تلك المقبرة المحاذية لمنازلهم.

ابتسم، فقد نويت الرحيل منهم إليك، نفد ألمي، ما عاد بي مكان لوجع آخر، وجع أن أستمر بالجلوس هنا أنتظر أن تأتي إلي سعدة لتحكي لي فصلا آخر من عذاباتها، أو أن أنظر إلى حمدة وكريمة تكبران فتصبحان كأمي، لا أطيق أن يعاد كل ذلك الشريط مجددا.

مذ أن خرجن مني وأنا عقدت العزم على الفرار، سألاقيك رغم أن لا موعد قطعته لي، أؤمن أنك بكل هذه الأرض، بأنك من هذه البلاد وساكنيها، بأن قلبك سيلوح لي من فوق أبراجها الشاهقة، أن طفلا من البدون يبيع الورد في الشارع سيدلني عليك، أنك ستنتظرني عند عجوز أخرى تبيع الماء المعطر على جنبات المقابر، أؤمن الآن أن كل شيء سيقودني نحوك.. نحوك.

لـم يكـن بيني وبينك سـوى روايـة، كانـت صـفحاتها سـاعتي الورقيـة للقياك، أقرؤها فتسرقني منك، أنسى موعـدك بـين صـفحاتها، كانـت كمـن تشبه حياتي ولا تشبهني، أشعر بين فصولها بأنني عشت على مقربة من كل أحداثها، الأسماء تبدو مألوفة، كذلك المنازل أيضا.

أقضـي معاهـا ليـالي، وكلمـا اقتربـت مـن فصـولها الأخيـرة أعـود إلـى الأجزاء السابقة.

أطوي نهايتها، بعد أن تأكدت أنني أقرب إليها من أي قارئ آخر، لربما بهذا كنت وريثتها في إعادة رسم صورة للمشهد الأخير بها غير الذي قرأتـه على مضض.

أنام قليلا على وقع ذلك الشـعور، يـوقظني صـوت أذان الفجـر الأول، يدعو مؤذنه الناس إلى الله، ويدعوني قلبي إليك، أرتدي ثيابي بأذانه الثاني، وحينما سار المصـلون إلـى صـلاتهم كنـت أديـر مقـبض البـاب في اتجاهـه المعـاكس، لا أحـد في الممـرات فهـذا المكـان بحراسـة متواضـعة أصـلا، ورغم ذلك فإن بابه الخارجي مغلق، أجلس إلى أسـفل الـدرج منتظـرة أن تأتي عاملات النظافة لأتسلل بهن للحياة.

يرفع المؤذن صوت إقامة الصلاة، أركنك من بالي قليلا لأذهب بعيـدا في التفكيـر كيـف أن الاوطـان وإن كانـت جمـادا فإنهـا تتشـكل بحسـب شعوبها، بأن كـل هـذه المسـاجد المتراصـة لـيس مهمـا عـدد مصـليها، بـل المهم أن تأخذ هذه البلاد شكل الرجل التقي ذي اللحية الطويلة والجبهـة المتجعدة، من غير أن يفقهـوا أن المسـاجد تكـبر بمرتاديهـا لا بحجارتهـا،

فكم هو مؤلم منظر بيوت الله وهي تستجدي مصليها بكثرتها وفخامتها ومكبرات أصواتها! فمن كان الله بقلبه لا يحتاج إلى أذان ليصلي، ومن كان الإنسان في ضميرها لا تُعمّر الصخر وتهمل البشر.

أسابق خطى المصلين لوصلك، عندما نهضت أختبئ بجانب الباب الذي فُتح لعاملي المشفى، ها أنا أهرب إليك، نسيت العدو بأقدامي، رحت أتعثر مرة واثنتين وثلاثا، ينهضني رعب أن يكتشفني أحد، ويجرني قلبي لك، ما زال بالظلام روح بعد، لذا لم تطفئ السيارات أنوارها، أطأطئ رأسي كلما مرت واحدة إلى جانبي، أصل أخيرا إلى الباب الرئيسي للمشفى، أعدو للمرة الأخيرة إلى أسفل الجسر، يبدو المكان آمنا هنا لحين بزوغ أول الفجر، هم لن يكتشفوا أمري قبل ذلك، وسيكون الأمر شبه مألوف إن واصلت السير في الشارع بهذا الوقت.

الآن أشبه الساعات الأولى للمهاجرين رغم أن غربتي في وطني، أو بالأحرى غربتي في البعد عنك، أشبههم تماما، فلا عودة بعد هذا إلى ما كنت عليه سابقا، يخيفني أن أرجع لتلك القيود لأكون رقما في سجلات مختليهم، أن أعود باردة في حجراتهم بعد كل هذا التعرق الذي ملأ جسدي، فما أسهل الكسر لكائن متجمد مثلي! وأنت الذي علمني كيف أتشكل بوجعي لطائرٍ يحلق حيثما حملته الريح، سبقت الشمس أي تردد عندي لأعود لهم، كذلك الرضيع الذي أزحت قماطه، راحت تتمدد بأشعتها في السماء، أزف الوقت ليكون لي خيار غير مواصلة الهرب.. وغيرك.

لا أعرف عنوانا لأهلي أذهب إليه سوى المقبرة، لم أخطط، لذلك وجدتني أقولها للرجل المسن الذي توقف لي عندما مددت يدي إلى الشارع أستجدي أن يقلني أحد، ركبت إلى جانبه، تركت فراغ المقاعد في الخلف لذكرياتي التي سأسردها هناك، لم أهتم للحديث معه، فهم ذلك عندما راح يسألني من دون أن يلقى إجابة مني، ظل المسن صامتا بقية الطريق إلى أن وصلنا إلى المقبرة، وقبل أن أهم بالنزول راح يخرج محفظته ويعطيني بعض النقود.. كأنه يطلب مني أن أشتري دموعا للقائي بأمي!

أعرف هذا المكان كما لا يعرفه أحد سواي، أحفظ أقسام تواريخ الموتى كأنها تاريخ ميلادي، أبي أولا، طفولتي، لهوي، قوت يومنا، ماء أمي المعطر، أخي ثانيا، عباءة أمي التي أجمعها بيدي وأنا أنظر إلى المصلين وهم يصلون عليه، أبواق السيارات التي تحتفل بالعيد الوطني من خلف سور المقبرة، يد «زياد» الممزقة أوردتها، صفحة الجريدة التي كُتب بها أنه مات بجرعة مخدرات زائدة، دفنه، انقطاعنا عن المقبرة، أمي أخيرا، نقلب جسدها المنتفخ في مغاسل الموتى، عويل العاملات هناك بعد أن عرفنها، الرجل الذي زجرني عندما شاهدني أستعد للصلاة عليها، فلا صلاة جنازة للنساء وإن كانت أمك! استئجارنا رجالا أغراب لدفنها.. ثم كل الذي أتى بعد ذلك.

أعرف هذا المكان بكل تفاصيله، كما أن رائحتها هي دليلي، أعرف كيف أسير بين القبور من غير أن أسحق الموتى، هنا تناقضنا، بنسياننا لتعبنا وبكائنا على راحة أحبابنا الأبدية! وبعريهم وهم تحت الأرض

وحشمتنا ونحن فوقها!

أسير بمحاذات كل هذا.. وأكثر، حيث تكون أمي تكون طفولتي، تعرف قدمي الآن سبيل العدو رغم عثراتي قبل حين من جراء ذلك، من بين كل تلك الشواهد والرخام وحده كان قبر أمي ترابا وقطعة من الحجر به اسمها، أهرول لها، أقفز عن كل هؤلاء الموتى قبرا قبرا، أصل إليها، كأنني أقضي صلاة منعت منها في ذلك اليوم، أمي.. أمي.. أمي، أقبض ترابها، أقبله كأنه يدها، أنحني لبقيته، أعفر وجهي به كأنه صدرها، أتقوقع محتضنة منتصف القبر كأنه حجرها.

كان تراب أمي رطبا كقلبها، رغم مرور وقت كبير دون أن يسقيه أحد، نبتت حشائش على جانبي القبر بفعل الأمطار، رحت وأنا مستلقية أقطعها وأشمها، كانت بها رائحة شارعنا ذاك بالصليبية، بفعل التصاق روائح الفقراء بحياتهم وموتهم.

وحين جفت دموعي شعرت بها تسألني عن أخي، نهضتُ إليه، شبيها بقبرها كان، بندى ترابه وفصيلة الحشائش، جلست بجانب رأسه أحدثه: أقسم بجرح يدك يا «زياد» إن الفقر لا يبيع سوى الشرفاء، وإن الموت الذي اشتهى شبابك راودته بنفسي فأعرض عني، أحقا قتلتك غيرتك؟ سمعت أمي تنعاك بذلك في إحدى ليالي عزائك، أقسم بخجلك من كونك شقيق بنات المقابر، أننا لم نكن سوى عار الوطن وفخرك، كما كنا صغارا يا أخي نلوذ بعباءة كي لا يرى أحد حتى ظلنا، ومن بعدكم، صار جنوني عباءتي.

لم يحرك أخي المذبوح ساكنا، فلو أن روحه اكتفت بقسمي لعادت إليه، كما عدت أنا إلى أمي، لم أشبع منها، قبضت على ترابها بيميني وفتحت عيني بيسراي، رحت أسقي عطشي ترابا بداخلها، حتى امتلأ ناظري منها، أغمضت عيني كي لا يسقط شيء، وصرت أمسح على القبر لأرتبه مثلما كان.

بدأ العشاق يتوافدون، فما من زائر يأتي بهذا التوقيت الباكر، صرت أتجول بين القبور كعادات طفولتي، وجدت المقبرة كما كانت تماما، ربما هي المكان الوحيد بهذه البلاد الذي يخشى الفاسدون أن يسرقوه، بل على النقيض من ذلك كانوا يتبرعون له، ليس لشيء سوى أن مصيرهم المحتوم سيكون فيه.

وعندما اكتظ مشيعو إحدى الجنائز وجدت فرصة لأن أسرق أولئك المتبرعين، ورحت أنقل زجاجات المياه في المبردات إلى داخل الكيس الذي بحوزتي وأوزعه عليهم، جمعت أموالا كثيرة، قبل أن أدسها بالتساوي بداخل تراب أمي وزياد.

بيد أن فعلتي هذه أثارت حفيظة العاملين هناك ممن يتلقون تبرعات مرتادي المقبرة، شعرت بالخوف بعد أن وجدتهم يراقبونني، قبل أن يقترب أحدهم مني ويطلب مني بكل فظاظة الخروج:

- لدينا تعليمات بأن لا نسمح للمتسولين بأن يكونوا بالداخل.

يضيف:

- بإمكانك الجلوس بالخارج مع بقية النسوة هناك.

- لكني هنا لزيارة أهلي!
- لدينا شكوى بأنك قمتِ ببيع مياه التبرعات.
- بربك، لا مكان آخر يمكنني الذهاب إليه، لن أضايق أحدا فقط دعني وشأني.
- إن لم تخرجي الآن سأقوم بالاتصال برجال الشرطة.

«يشطرني النهار نصفين، أيهما الأكثر بشبهي.. لا أعلم
وإياك الأكثر بي.. لا أعلم أيضا! قد اعتدت فيما مضى ليلك،
لا ألفةَ لي بهذا بالحقيقة، تلك التي ارتبطت بالشمس وبنهاري هذا.
بجرم الاشتياق أُتهم بهم وبك، فيا بقية الروح قد حان موعد كل تلك الإجابات:

- **لمَ تصرّين دائما على أن تكون نهاية حديثنا سؤالا؟**
- **ما الأسئلة سوى موعد للقاء آخر.**
- **إذن لن تأتي حينما أتحول إلى إجابة؟**
- **الإجابة باب واحد.. وأنت كل أبوابي»..**

‘‘‘

‘‘

‘

فيا من دنا

كثالث خُلقت به غير طيني، وأنت الغريب القريب الذي أسكن ويسكن، يا مبرئ علل هذه البلاد بداخلي، كأنك آخر قطرة حياء على جبيني، أو جناح لكرامتي التي كلما سقطت أرضا انتشلتها من أقدام المارة. فيا من تأخرت بدايته.. كن نهايتي.

في الخارج، تجلس نسوة ألفت حجابهن ولم آلف هرولتهن للسيارات التي تتوقف لهن، لم نكن فيما مضى نفعل ذلك، لكن ربما خلال هذه السنين التي مرت أصبح الفقر أشد فتكا حتى يجبرهن على هذا الركض،

مر نصف هذا النهار وأنا أجلس خلف شجرة، أراقب الشارع خوفا من أن يأتوا ليقبضوا علي وهن يراقبنني، لم أشاركهن التسول ركضا، ولم يشاركنني الخوف حتما، كنت حين يهدأ الشارع أحاول أن أستذكر أيا منهن، لم تنجح محاولاتي تلك حتى كسرت إحداهن جمود النظرات فيما بيننا واقتربت مني لتدعوني لتناول الطعام، وكلما كانت تطرح سؤالا كنت أملأ فمي بالطعام عوضا عن إجابتها، أفعل ذلك بعد أن كررت نفس الأسئلة التي مللت من سماعها: اسمك؟ أهلك؟ أين تسكنين؟ لمَ أنتِ هنا؟

يقترب نصف النهار الثاني من الأزوف، تمشي النسوة الآن بخطى ثقيلة نحو السيارات التي تقف على مقربة من الرصيف، لا يمددن أيديهن من خلف زجاج نوافذها هذه المرة، بل يفتحن الباب للصعود بها، فقد حان موعد العودة إلى المنزل، لم يتركن منهن شيئا، حتى أوراق «الكرتون» التي يجلسن عليها أخذنها معهن.

وعندما أغلق موظف الأمن الباب الرئيس للزيارة كان الليل قد بسط سواده على السماء كلها.

أسير على التراب الفاصل بين الشارع وأهلي، يغطي الليل جزءا مني، وتغطي الأشجار الجزء الآخر، أستدير إلى اليمين عند الزاوية الأخيرة لسور المقبرة، لم أشأ أن تفضحني إنارة الشارع وأنا أقطع الإشارة المرورية نحو الصليبية.

أمشي مسافةَ حُلم، أصعد به درجاتِ جسرٍ لعبور المشاة شُيّد مؤخَّرًا للرَّبط بين الصَّليبيّة والمقبرة! سهَّلوا به كلَّ الطُّرق لِتَحَوُّل جسدِك إلى جثمان ومنزلِك إلى لحد، كتبَ مراهقون ذكريات ورسائلَ حبٍّ مُشفَّرة على جانبَي الجسر، ما زال الحبُّ مُحرَّمًا في مناطقنا، لكنّي أسير واثقةَ الخطى به صعودًا واستقامةً قبل أن تهبط خطواتي بحكم ذلك الجسر.

لو أستطيعُ أنْ أحضن هذه البيوتَ وساكنيها، يلعب أطفالُهم في فضاء التُّراب المحاذي للمنطقة، يلعبون بالتُّراب في حين كان الوطن ينثرُ الغبارَ حول مستقبلهم، بضعة فتية آخرين يتجمَّعون حول نارٍ أوقدوها من بقيَّة القطع الخشبيَّة يصبغون بدخانها الأبيض سوادَ سمائهم، لو أنَّك سألت أيًّا منهم عن أجمل ما في الدنيا لقال لك: أرضٌ ونارٌ وأصدقائي.

بجرف الكويت كنّا، وهأنذا أعود بخطًى تشبه تمامًا حيرة ذلك الطفل في غلاف الرواية: ينظر إلى اليمين وكأن كلَّ شمال البلاد لعنةُ أهله، أما أنا، فلست سوى قربان بلادينا في محرقة الحفاظ على جيناتها الزّرقاء، أنظر إلى اليسار لمكان أبعد من هذه البيوت الصَّغيرة. ألعنهم جميعًا، أعود إلى النَّظر يمينًا فألعنهم هم الآخرون أيضًا، فما هم إلّا الإقطاعيون الجدد سواء طالت لحاهم أم قصرت فساتينهم، لم يجدوا أرضًا يتقاسمونها فارتضوا أن تكون حيواتنا تركة الشَّيطان يوزّعونها في ما بينهم.

تحرسني عين الله من أعلى، وفي الأرض كل الصليبية أهلي، أرخي أسفل عباءة الرأس التي أرتديها، أمسح بذلك عن تلك الأقدام التي خطّت بين شقوق هذه الشوراع، ستقول الدولة إن مجنونا هاربا قد مر من

هنا، وسيقول قلبي إنه فاز بقصة أخرى غير التي قرأها الناس، أو أنه فاز بعناق أخير مع جدران المنزل غريب الأطوار هذا، أصله، كان فيما مضى شارعنا الأخير، أصبح الآن شريعتي الأولى نحو حياة لا انتظار بها، فما أنا إلا ابنة كل الانتظارات التي لم تأتِ.

أتودد لفتى يلهو بدراجته الهوائية:

- ما اسمك؟
- حسن، هل تعرفينني؟
- إن كنت تقطن بهذا الشارع فحتما أعرف أهلك وهم يعرفونني.
- أتسكنين بشارعنا هذا؟
- نعم.
- أين منزلك؟

أشير له بيدي فيسألني بسرعة:

- هل تقصدين بيت «بتلة» المجنونة أم الخالة «أم بشار»؟

لم يكن أصلا سوى منزل واحد ببابين، لكني وجدت بوصفه لي فرصة لاستنطاقه أكثر.

- من هذه «بتلة»؟
- لا أعرفها تحديدا، لكنها فتاة كانت تقوم بالتسول في الأسواق قبل أن تفقد كامل عقلها وتقدم على محاولة الانتحار، من لحظتها لم يعرف أحد شيئا عنها.

تسـول! أحقـا يقصـدني هـذا الفتـى؟ لا أذكـر أن أحـدا آخـر شـاركني بالاسم، ولا أذكر أنني حقا أنني كنت أتسول في الأسواق كما يدعي! في المرات القليلة التي خرجت بها من المنزل كنت أتجه إلى عيادة الطبيب طارق ولا أكثر من ذلك.

- أين ذهب بقية من كان بمنزل هذه المجنونة؟

أسأل الفتى:

- لا نعرف، منذ أن أغلق باب منزلهم في آخر مرة لم نعد نرى أيا منهم.
- وماذا عن النصف الاخر.. «أم بشار».
- لم تأتِ إلى هنا منذ شهور، لكني سمعت أمي تتحدث مع النسوة بأنها سوف تأتي قريبا بعد أن أخبرتها بما حدث.
- هل ما زال أهل الصليبية ذوي شهامة؟

يرفع الفتى صدره فخرا بما سمع قبل أن أضيف له:

- «أم بشـار» عمتـي وقـد أضـعت قفـل البـاب الـذي أعطتنـي إيـاه. أتستطيع أن تقفز فوق الحائط لتفتح لي باب منزلها؟
- هل أنتِ قريبة الطفل «جهاد»؟
- نعم.. كلنا أقرباؤه.

أشبك أصابع يديّ بقوة، يضع الفتى رجلا عليها ويتشبث برجله الأخرى بين فراغات الصخور، أسمع ارتطامه بالأرض بعد قفزه إلى

الجانب الآخر، يفتح الباب على مصراعيه بعد أن منعه القفل من أن يفعل ذلك بالجزء الأساسي منه.

- هل أنت كفء لأستأمنك على عدم إخبار أحد بوجودي هنا؟
- سأقوم بحراستك بالخارج عبر الذهاب والمجيء بدراجتي، إن احتجتِ أي شيء فقط نادي علي، اسمي «حسن».

نضرب كفينا ببعضهما بعضا في إشارة إلى إتمام الاتفاق هذا، أزعجني كثيرا عدم قدرتي على إغلاق الباب جيدا، أبحث عن شيء في الفناء الداخلي فأجد أسطوانة غاز، أجلبها لأوسد بها أقصى الباب ليظهر كأنه كما كان.

بين ظلامين أدير اتجاهي إليه، الآن أنا لا أعرفني، لكني أعرفه، ثمة باب داخلي يربط بين جانبي هذا البيت، كان دائم الإغلاق من هذا الجزء الذي أنا به الآن، أتركني قليلا، ففصول قصتي لم تنتهِ بعد، أسير على أطراف أصابعي إلى الداخل، أتحسَّس الحائط بحثا عن مفاتيح الإنارة الداخلية فلا أريد أي إضاءة تصل إلى الخارج. تملأ الأتربة في الحائط أصابعي قبل أن أقبض على مرادي.

أفتحها وأغلقها سريعا لأعرف أي الأضواء ستشتعل، وحتى عندما تأكدت أيها المطلوبة كنت أكرر هذا الأمر، أذكر في طفولتي أن أمي نبهتني إلى أن هذا الأمر نداء للجن! نجحت حيلتها في إبعادي عن اللعب بالكهرباء ووفرت بهذا مصاريف شراء مصابيح جديدة، لكني لم أكن أريد التواصل مع أي منها الآن، فقط كنت متوترة من ألّا أجد المنزل كما كان في وصف الرواية.

أتوقف أخيرا عن مناداة الجن، أعيد بناء هذا البيت إلى اثنين، أربع غرف إلى يميني وكل الذي أنا كنت به كان ممرا لها، تلك السيدة وضعت مفتاحا في مجرى قفل كل باب من هذه الغرف، كأنها كانت تنتظر قدوم أحد ما إلى هنا!

أبدأ من أولها، أدفع الباب إلى نهايته، لا أضواء بهذه الغرفة، لكن الإنارة القادمة من هذا الممر كافية لأشاهد كل شيء، ذلك الترتيب الذي وضعت به الموجودات ينقلك إلى شريط ذكريات من كانوا هنا، تفاصيل دقيقة لم تغفل تلك السيدة عن جعلها على الأرفف الممتدة على طول الجدران، بأقصى اليمين صورة ذات برواز كلاسيكي لرجل يمسك يد عروسه، بدا أنها التقطت في وقت من ثمانينيات القرن الماضي أو ربما قبل ذلك، تشققت معظم أجزاء الصورة إلا ابتسامة من كانا بها.

وزعت فيما بدا أنها ذكريات بداخل الأرفف، ملابس متنوعة، سجادة صلاة، دمى أطفال، مغلفات رسائل، صور بلا براويز كتب على غلافها الأبيض من الخلف تاريخ ومكان تصويرها.

أتناول إحداها، كانت في تسعينيات الكويت، وقف ثلاثتهم بمكان ما في الجزء الذي كنا نسكن به، حملوا شهادات تفوقهم وابتسموا لأبيهم الذي ينتظر أن تلد آلة التصوير هذه حضنا يضمه بكلتا يديه، كتب: «الكويت في فبراير 1996 يوم حفل تفوق بشار- ليلى- جهاد.. كما هم بك، كن فخورا بهم، تحياتنا».

كبر الاطفال ببقية الصور، اختفت جدتهم بالصور التالية، اجتمع الرجل بزوجته في بلدان شتى، ولملمت حيواتهم فوق هذه الرفوف.

أذكر أنه قد كتب عنهم: كنتم أكبر من الوطن.

أذهب إلى الغرفة الثانية، رتبت هي الأخرى باهتمام شديد لكي تجمع أمًّا وطفلها، احتفظوا بكل شيء خصه حتى إن ضاق عليه، خزانة ملابس المرأة طغى الأسود بها على بقية الألوان، خزانة أخرى كانت بها دمى للطفل.

على الطاولة في الزاوية قلم وحزمة أوراق، أتناولها بيدي، أجلس عند باب الغرفة حيث تسمح الإضاءة بأن أكتب بها:

«اسمي بتلة، لكن أمي تناديني بتول، منذ أن كنت طفلة وأنا أخلق وهما لأعيش به، نسيت كم حياة موازية صنعتها لنفسي، ونسيت أيضا أيًّا منها هي التي سيحاسبني الله عليها بنهايتها، فكلما مات أبي أعدت إحياءه من جديد، ضمدت جراح أخي في نزيفه المستمر، وتبرعت لأمي بكلية بدلا من التي فسدت بداخلها.

اسمي بتلة، أحمل وقاحة تمنعني من أن أكون بتولا، عندما كبرت بي الأنوثة ادعيت الجنون بتسولي درءا لأطماع مختلي الشارع، لم يمنعهم هذا بشكل كامل، لكنه حال إلى حد ما بيني وبين نزواتهم، كانت أمي في أيامها الأخيرة تقاوم المرض والادعاء بأنها لا تعلم ما كنت أفعله، لذا لم يكن بيدها سوى فكرة زواجنا، لكني رغم اتساع الأشياء التي كنت أتسولها لم أرغب أبدا في أن أفعل ذلك الشيء مع رجل.

حماني الله في الشارع، لكن الشيطان كان يكمن في الطابق الحادي عشر بتلك البناية، أعلنت انهزامي أمام الرجل الأول الذي لمسني، ذلك الذي ظننت أنه يعالجني كان كمن يصنع بي قالبا لكعكته، وضع مقادير بحسب ذائقته، زرع بي وردا قبل أن يتلذذ بحرقه.

اسمي بتلة، هذا ما دونته يده في الورقة التي كتب بها عقدا عرفيا لزواجنا، أما الاختيار الوحيد الذي نلته في حياتي فكان بين اسميه: «ناصر» أم «طارق»، اخترت الأخير، أيدني بذلك قال إننا الآن نشبه بعضنا كثيرا حيث لا سجلات لاسمينا في قوائم الدولة الرسمية، ماذا عن «ناصر»؟ سألته، فأجابني: دعيه في حياته فلا شأن لنا به.

وهكذا كنت به ومعه وإليه، يأتيني بأحدهما ويغادرني بالآخر، يبكي قبل فعلته وأبكي أنا بعدها، لا أعرف من منا كان يشفق على الآخر أكثر، من قال لي إن حضنه وطن، مارس بسلطته كل أساليب قعمي، ذلك الذي أرادني دوما ولم يردني أبدا، بهذا لم يدخر بي شيئا للحياة معه أو بعده، فكلما غاب طارق به حضر ناصر بي!

تكمن كل قيمة خساراتنا بانكاشفها أمام الآخرين، غير ذلك، تبقى في طور النسيان حتى يحين موعد سداد ثمنها، فمذ أن وقع هذا الكتاب بين يدي شعرت بأن روحا غير التي بي كانت شاهدة على كل شيء، وأنا التي تعمدت طيلة حياتي نشر غموضي بأرجاء المنازل التي سكناها، قد كنت عارية تماما بين صفحات الكتاب.. ويديه.

اسمي بتلة، ذلك الذي ذيلت به موعدي معه، كتبت له: «في صحراء هذه البلاد تعال، حيث البيوت الصغيرة تقسم إلى اثنين والفرح إلى ما لا نهاية، تعال فثمة مواعيد تكبر بانتظارها كأنها لقاء يساوي عمرا من الشوق، تعال لأصنع معك كل ما عجزت عن فعله سابقا حيث لا أحد نخشاه ليفسد كل هذا، وحيث لا حدود لذلك العناق الحاد جدا، تعال هذه الليلة، فكل ما بي ينتظرك بلهفة لقاء كل الأحبة».

أعيد ترتيب المشهد الأول من تلك الرواية لتصبح مشهدي الأخير، أؤجل اكتشاف الغرفتين المتبقيتين ريثما أعود إلى «بتول» أمي، أفرش غطاء في ذلك الممر الضيق، أتناول أكثر سكاكينهم حدة، وأعيد شحذها مرة أخرى، أخبئها بين صفحات الأوراق في تلك الغرفة، لا ساعة تخبرني بالوقت، لكني أشعر بالليل قد انتصف، أذهب إلى باب المنزل، أزيح أسطوانة الغاز منه، نام الجيران كلهم آمنين، فلا مطر بهذه الأمسية تخر منه أحلامهم وأسقف المنازل، أمد رأسي إلى الخارج لأكتشف أنه حتى «حسن» حارسي الأمين قد اختفى، حسن حسن، يبدو الوضع مناسبا جدا.

يقبل على قدميه، هذه المرة الأولى التي لا أعرف بها إن كان طارق أم ناصر. سيان عندي أيهما الآتي، يعبر باب منزلنا الذي نسكن به دون أن يتوقف ليتأمل البؤس الذي كنا نعيشه، فوحدهم الفقراء يُعرَفون من تآكل أبواب منازلهم وأيلانها للسقوط، ووحده كان هو والوطن، لم يستوقفهما جوعنا وكل ذلك البرد الذي ملأ جلدنا.

يدخل الطامع لجسدي والطامعة بروحه، يعاونني في إعادة أسطوانة الغاز إلى مكانها، أضع أصبعي على فمه لأمنعه من الحديث مشاورة له لئلا يسمعنا أحد، أمسك بيده، كانت المرة الأولى التي أقوده بها، أجلسه على ركبتيه في الممر الذي فرشته لذبحه.

- اجلس على ركبتيك ريثما أعود.
- لماذا على ركبتي؟

أبتسم له:

- أنت ملكي الليلة.. لا تطل الحديث..

كان مقابلا لذلك الباب الذي دخلت إليه، أفتح دولاب اللباس، أختار ثوبا أسود ذا أكمام طويلة، أضع السكين بداخل أحدها، أتنفس بعمق قبل أن أخرج له.

أذهب من خلفه، يستدير برأسه ناحيتي دون أن يتحرك، أجلس على ركبتي أيضا بحيث تغيب كامل الرؤية عنه، أرخي كمَّ ثوبي لتنسل السكين منه، أضعها بحجري، أمسك رقبته بكلتا يدي، يقشعر جسده من برودتهما: لا عليك ستدفأ الآن، أقولها له قبل أن أمسك بيميني السكين بينما راحت يساري تتأكد من شريان عنقه.

لم أغمض عيني هذه المرة كما فعلت ذلك في محاولة انتحاري تلك، لم أنكزه أيضا، كانت ضربة واحدة لا أكثر انغرزت بها السكين بالمكان الذي اخترته تماما.

أرخيت ظهري على الحائط أنظر إليه وهو يتهيأ لمقابلة الله بشهوته، كانت روحه بثمن بخس حقا، فلم يطل أوان فيضها بعد أن قام للمرة الثانية وسقط بعدها للأبد.

لم يمت الظلم في هذه البلاد، وإن مات أحد الظالمين بها.

«يا سيد الوجع كله
تلحف إجابة كل تلك الأسئلة التي تركتها هائمة بيننا
تطاردني.. وما علمت أنك تطارد بي حتفك
سألتك ذات مرة: كم وردة دفنوها هنا لتصبح ذي الصحراء مزهرة؟
لم تجب.. بل رحت تفكك رمزية سؤالي
وها أنا اعيد تكرارها لك، دونما أي انتظار هذه المرة:
من حول ذي الصحراء إلى مقبرة؟!»

‘‘‘

‘‘

‘

فيا من دنا..

كغفران يكفر كل ذنوبي، وأنا الساعية بين صفاء روحك ومروءتك، قد صار اكتشافي لغموضك زمزمي، بين ضيات جفاف لياليه، أرتوي دمك، وأروي بك كل أهلي، قد كانت هذه المرة الأولى التي يأتونني مبتسمين في منامي، وزغردت أمي أيضا لأول مرة فرحا، وببداوة أسلافه سمعت «زياد» ينتخي باسمي، أما أبي فكان يقول لي: أزهرت بتلة أخيرا.

أذهب إلى باب المنزل، تبدو الشمس «جميلة» من بيتكم يا «جهاد»، لم يعد بي قوة لأرفع أسطوانة الغاز، أدفعها بقدمي لأفتح باب منزلكم على مصراعيه، أجلس عند عتبته أنتظر أن تذهب «سارة» إلى المدرسة، فكم كنت تواقة لأن أشاهد عينيها الواسعتين، أو شعرها الأصفر الرقيق،

لكن الحياة تتوقف تماما عندما شاهدني أول شخص بهذه الحالة، اقترب مني وحينما رأى الدماء تلطخ جلدي ذهب مسرعا يضرب على الأبواب الأخرى.

خرج جيرانكم كلهم، مدت النسوة رؤوسهن من الأبواب، بينما فتيان شارعكم وقفوا مذهولين بمنتصفه، فلا مطر كان ليمثلوا به أنشودته، اقترب الرجال مني ليسألوني تلك الأسئلة المعلبة التي سئمت الإجابة عنها، وحينما عرفتني إحدى النساء صاحت بأعلى صوتها: هذه بتلة هذه بتلة!

غطوا رأسي بحجاب، قدموا إلي الماء قبل أن يسألوني عن جوعي والبرد، فرق جمعهم رجال الشرطة حين اكتشفوا الجثة التي بالداخل، وضعوا قيودا حول يدي، أركبوني في إحدى سياراتهم، وعندما ادرت رأسي إلى اليمين، كان «حسن» وبغفلة من الجميع يقترب مني.. ليفتح الباب!

‘‘‘

‘‘

‘

فيا من دنا..

لحلم.. كن جنوني!

بيروت- تشرين الثاني 2021